الحياة الدينية في عهد الدولة الوسطى

لقد كان من نتائج تدهور السلطة في البلاد بعد سقوط الدولة القديمة أن أصبحت الحالة الاجتماعية في تأخر ملموس في كل نواحيها، فقد كان المعمار وزخرفة المقابر يظهر فيها الانحطاط من جيل إلى جيل، وقد كان القوم يحاولون أن يقلدوا المناظر القديمة، غير أن قلة المال والاستعداد العقلي قد قاما حائلًا دون بلوغ ذلك؛ ولذلك نشاهد مما بقي لنا أن عتاد المقابر أخذ يتضاءل أكثر فأكثر حتى أصبح شيئًا حقيرًا تافهًا؛ لأن أهل هذا العصر لم يكن لديهم الموارد التي كانت في يد رجال الدولة القديمة. وكذلك نشاهد في هذا العصر أن رجال الفن قد اختفوا، ولم يبقَ إلا أصحاب الحرف والصناعات، ومع ذلك فإن عصر الانحطاط هذا كان له أهمية عظمى في تاريخ مصر؛ لأنه كان من نتائج محو سلطة الأشراف أن قام في البلاد طائفة الطبقة الوسطى لتناهضها، فاكتسبت من الحقوق ما كان له شأن عظيم في توطيد العدالة الاجتماعية، وإذا كنا نلاحظ أن مقابر هذه الطبقة كانت أبسط بكثير من مقابر هؤلاء الأشراف، فإننا من جهة أخرى نلاحظ أن المبادئ الأصلية في عبادة الأموات ومعتقداتهم، وهي التي كانت وقفًا على علية القوم، قد أصبحت ملكًا مشاعًا لكل الشعب المصري؛ ويرجع السبب في ذلك أيضًا إلى ما قام به رجال الفكر في هذا العصر من حملة شنعاء على النظم القديمة العتيقة، والمطالبة

بحقوق الإنسان في هذه الحياة وفي الحياة الآخرة، ناشدين الوصول إلى مساواة الناس جميعًا في الدنيا والآخرة. وقد تكلمنا في الفصل السابق عن العدالة الاجتماعية في هذه الدنيا، وسنتناول الآن الكلام عن العدالة في حقوق الإنسان في الآخرة، ومعتقدات القوم عامة في هذه الفترة.

لقد كان من نتائج التخريب والتدمير والفوضى التي حدثت في البلاد في العهد الإقطاعي الأول أن تحوَّلت النفوس إلى سوء الظن والتشكك في فائدة الاستعداد للحياة الآخرة الذي كان مظهره بناء قبر ضخم مجهز بالأثاث الجنازي، وبخاصة أن كُتاب هذا العصر أخذوا ينادون بعدم فائدة العتاد المادي للمتوفى، غير أن المعتنقين لهذا المذهب كانوا فئة ضئيلة جدًّا، وذلك بالرغم من مبالغة الكُتاب في هذا الاتجاه، كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق، والواقع أن مثل تلك الاتجاهات كانت من جهة من مستلزمات عقيدة التشاؤم واليأس المطلقين، كما كانت من جهة أخرى من مستلزمات الاعتقاد بضرورة التحلي بالقيم الخلقية للحياة الآخرة بدلًا من الالتجاء إلى الوسائل المادية التي كانت تنحصر في بناء المقابر الضخمة وتزويدها بالأوقاف والكهنة. وهذا الاعتقاد الخلقي أخذ ينمو ويزداد نفوذه، غير أن هذه الآراء التي كانت تعتبر ثورية ورجعية على العادات القديمة لم ينحدر في تيارها الجم الغفير من الشعب المصري القديم؛ ولذلك لما صارت سعادة الآخرة حقًّا مشاعًا لجميع المتوفين، كما سنرى، فإن عامة الشعب الذين كانوا متمسكين بامتيازاتهم هذه الجديدة التي تجعل لهم حق التمتع بذلك المصير السماوي الفخم، والذي كان منذ زمن بعيد حقًّا موقوفًا على الفرعون فقط، قد اتخذوا تلك الشعائر الجنازية، واستمروا قائمين بالمحافظة على مزاولتها، وقد استمرت العناية بإقامة تلك الشعائر تزداد وتنتشر دون أي التفات إلى ذلك الصمت البيِّن والخراب البادي الذين كانا يخيمان فوق هضبة الأهرام، وفوق جبانات الأجداد القدامى؛ ولذلك نجد أنه بالرغم من أن والد «مريكا رع» كان يشعر وهو يلقي تعاليمه لابنه شعورًا عظيمًا بتلك الأهمية الخطيرة التي تنتج من التحلي بالأخلاق القيمة، فإنه مع ذلك لم يرَ بدًّا من الإفصاح لابنه بضرورة العناية بإقامة القبور؛ إذ يقول له: «زين مثواك (أي قبرك) الذي في الغرب، وجمِّل مقعدك في الجبانة»، ثم اضطَّر أن يضيف إلى ذلك قوله: «كإنسان أقام العدالة؛ لأن ذلك هو ما يرتكن عليه القلب.»

ويتضح من ذلك القول أن هذا الملك لم يكن يعتبر القبر الوطيد البنيان وحده كافيًا لضمان السعادة في الحياة الآخرة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى نجد أن «أبور» قال في تحذيراته للملك فضلًا عن ذلك: «فإنه من الخير أن تقيم أيدي الناس الأهرام وتحفر البحيرات وتغرس خمائل الجميز للإله.» والواقع أن فقدان القبر كان يعد في نظر الموظف الثري أفظع دليل ممكن على عدم ولائه للفرعون؛ ولذلك قال حكيم لأولاده: «لا قبر لإنسان خارج على جلالة الفرعون، بل إن جثته سيُلقى بها في الماء.»[١] ومن أجل ذلك كان كثير من الأشراف في ذلك العصر يقومون ببناء المقابر وتجهيزها بمعدَّات، جريًا على ما كانت عليه الحال قديمًا.

وحقيقة الأمر أنه لم يعُد في قبضة يد الفرعون ذلك السلطان المطلق على رجال الحكومة حتى يمكنه أن يتخذ منها مجرد العامل السامي المنظم لإقامة المقبرة الملكية الهائلة، ومع ذلك فإن الموظفين القائمين بإقامة مثل تلك المقابر لم يترددوا طرفة عين في موازنة تلك المقابر بجبانة الجيزة، وقد كان ذلك من باب المبالغة، فقد أظهر مثلًا «مري» أحد مهندسي الملك «سنوسرت الأول» ارتياحه العظيم عندما كُلف من قِبل الملك بإقامة مثوى له أبدي تفوق شهرته «روستاو» (أي جبانة الجيزة)، وهي المنطقة الممتازة الخاصة بالآلهة، فكانت عُمد ذلك المثوى تخترق السماء، والبحيرة التي حُفرت هناك قد وصلت إلى النهر، وأبوابه العظيمة المناطحة للسماء في طولها قد أقيمت من أحجار «طرة» البيضاء.

وقد فرح الإله «أوزير» رئيس أهل الغرب بكل آثار سيدي (الملك)، ولقد سُررت أنا نفسي وكان قلبي مبتهجًا بما قد قمت بإنجازه. و«المثوى الأبدي» هذا هو قبر الملك، ويشتمل كذلك على المزار أو المعبد الجنازي الذي كان قد أقيم قبالته كما يدل على ذلك الوصف المذكور. ومع أن مقابر الإقطاعات لم تَعد تبنى حول هرم الملك، كما كان يفعل الأشراف ورجال البلاط في عهد بناة الأهرام؛ إذ صارت الآن قبور الأشراف مبنية في الإقطاعات في طول البلاد وعرضها، فإنهم مع ذلك قد استمروا يتمتعون إلى حد ما بالهبات الجنازية التي تُصرف من الخزانة الملكية، وكانت الصيغة الدينية الجنازية المألوفة في ذلك الوقت هي «قربان يهديه الملك»، وهي نفس الصيغة التي كانت شائعة

---

[١] راجع تعاليم «سحتب أب رع» [أمنمحات الثالث ١٨٤٩–١٨٠١ق.م].

الاستعمال في المقابر التي حول الأهرام، وقد صارت تُنقش بكثرة في ذلك الوقت على جدران مقابر الأمراء والأشراف. وعلى أية حال فإن هذه الصيغة لم تصبح بعد مقصورة على مقابر عِلية القوم؛ إذ باتساع انتشار المذهب الديني الذي كان خاصًّا بالأشراف بين عامة الشعب صار من العادات المعروفة المتفق عليها عند القوم أن يتضرع كل إنسان إلى الملك حتى يعطيه نصيبًا من تلك الهبات الجنازية الملكية؛ ولذلك نجد كل طبقات المجتمع حتى أحقر العمال من المدفونين في «العرابة المدفونة» وغيرها كانوا يتضرعون لنيل «قربان يهبه إليهم الملك»، بالرغم من أنه كان يستحيل أن يتمتع عامة الشعب بامتياز كهذا.

على أننا لم نحصل على فكرة ما عن تلك العادات البهيجة الخاصة بتموين المُتوفَّ في الحياة الآخرة إلا في العهد الإقطاعي، وهي تلك العادات التي صارت الآن متأصلة في حياة الشعب المصري القديم.

وقد حفظت لنا المقابر التي لا تزال باقية إلى الآن في مقابر مقاطعات الوجه القبلي بعض بقايا تلك الشعائر اليومية العادية، وكذلك ما كان خاصًّا منها بالاحتفالات والأعياد التي كان الشعب يظن أنه بها يُدخل السرور على الذين رحلوا عن دار الدنيا إلى دار الآخرة، حتى تصير حياتهم أكثر مرحًا وأعظم حبورًا، وهذه الاحتياطات نفسها كانت متبعة في عصر الأهرام عند الأشراف أيضًا؛ إذ نجد أن الشريف «زفاي حعبي» الأسيوطي المنبت، وأمير مقاطعة «سيوط» الذي كان يعيش في عهد «سنوسرت الأول» قد أقام لنفسه تمثالًا في كل من المعبدين الرئيسيين في المدينة؛ أي إنه أقام تمثالًا في معبد الإله «وبوات»، وهو الإله المحلي القديم لذلك المكان، وكان يمثل في صورة ذئب، ومن ذلك الاسم باليونانية اشتقت المدينة اسمها «ليكوبوليس» (بلد الذئب)، أما التمثال الآخر فقد أقامه في معبد «أنوبيس» وهو إله معروف في صورة كلب أو صورة ابن آوى، وقد كان ذلك الإله يومًا ما أحد الآلهة المناهضين للإله «أوزير». وقد ترك الأوقاف الخاصة لإقامة الشعائر والاحتفالات للآلهة، ولتقديم الطعام اليومي لروحه «كا» في مقبرته، وقد نُقش على جدران مقبرته شروطًا عشرة لإقامة هذه الاحتفالات وتقديم الطعام، وهي توضح لنا الحياة الدينية في هذا العهد. وقبل أن نتكلم عن هذه الاحتفالات سنضع أمام القارئ ترجمة حرفية لهذه الشروط العشرة وهي:

(١) شروط الوقف العشرة[٢] المنقوشة على جدران معبد الأمير «زفاي حعبي»

الشرط الأول

(٢٧٣–٢٩٦) الشرط الذي تعاقد عليه الأمير الإقطاعي، ورئيس الكهنة المسمى «زفاي حعبي» صادق القول مع كهنة الساعة[٣] لمعبد الإله «وبوات» سيد «سيوط»:

(١) أن يقدم رغيف من الخبز الأبيض من كل كاهن مطهر لتمثاله الذي في معبد «أنوبيس» سيد «رقررت» في أول يوم من أيام النسيء، وذلك عندما يسير الإله «وبوات» سيد «سيوط» إلى معبده.

(٢) ما يقدَّم لهم في مقابل ذلك نصيبه في الثور الذي يقرِّب إلى «وبوات» سيد «سيوط» في معبده عندما يذهب إلى هناك، وهو نصيبه من اللحم المقرَّب، وهو ما يستحقه أمير المقاطعة.

(٣) وقد تكلم لهم قائلًا: «انظروا لقد أعطيتكم هذا القربان من اللحم الذي أستحقه من المعبد، وذلك في مقابل أن تقدموا إليَّ هذا الخبز الأبيض»، وعلى ذلك قدِّموا له نصيبًا من الثور لتمثاله المعهود به إلى كاهن لروحه «كا»؛ ومن أجل ذلك أعطاهم قربان اللحم هذا.

(٤) وقد سُروا بذلك.

الشرط الثاني

(٢٧٧–٢٨٢) الشرط الذي تعاقد عليه الأمير الإقطاعي رئيس الكهنة «زفاي حعبي» صادق القول مع كهنة الساعة لمعبد الإله «وبوات» سيد «سيوط»:

(١) أن يقدِّم رغيف من الخبز الأبيض من كل منهم لتمثاله الذي في حراسة كاهن روحه، في اليوم الأول من الشهر الأول من الفصل الأول وهو يوم السنة الجديدة، وذلك عندما يعطي البيت سيده، بعد إنارة المصباح (الشعلة) في المعبد، وأن يخرجوا خلف

---

[٢] Griffith, “The Inscriptions of Suit and Dier el Rifeh”, Pl. VI, 1, 273 ff.

[٣] كهنة الساعة هم الكهنة غير الرسميين الذين كانوا يتناوبون العمل كل شهر.

كاهن روحه عند الاحتفال بتنعيمه (أي جعله روحًا منعمًا) إلى أن يصلوا إلى الركن الشمالي من المعبد، كما يفعلون عندما ينعمون موتاهم أنفسهم المحترمين في اليوم الذي يضاء فيه المصباح (الشعلة؟)

(٢) وما يقدِّمه لهم في مقابل ذلك هو مكيال «حقات» (جالون) من شعير الشمال من كل حقل من حقول الوقف، من باكورة محصول ضيعة حاكم المقاطعة، طبقًا لما يقدِّمه كل رجل سيوطي معتاد من باكورة حصاده؛ وذلك لأنه أول إنسان يجعل كل فلاح من فلاحيه يقدِّمها (الباكورة) لهذا المعبد من باكورة حقله.

(٣) وقال: «انظروا! إنكم تعلمون أن التخلي عن أي رجل عظيم، أو رجل يقدِّم شيئًا للمعبد من باكورة حصاده، ليس بالحسن له، وليس هناك أمير مقاطعة ينقص في زمانه من شرط أمير آخر عمل مع الكهنة المطهرين في زمانهم، يضاف إلى ذلك أن هذا الشعير يجب أن يكون ملكًا لكهنة الساعة للمعبد كل على حدته؛ أي لكل كاهن مطهر سيقدم لي هذا الرغيف من الخبز الأبيض، ويجب أن لا يقسموه (أي الشعير) بين أولئك التابعين لشهر بعينه؛ وذلك لأنه يجب عليهم أن يعطوا هذا الخبز الأبيض كلًّا على انفراد.»

(٤) وقد سُروا بذلك.

الشرط الثالث

الشرط الذي تعاقد عليه أمير المقاطعة ورئيس الكهنة «زفاي حعبي» صادق القول مع هيئة موظفي معبد الإله «وبوات»؛ لأجل أن يقدم له خبز وجعة، في اليوم الثامن عشر من الفصل الأول، وهو يوم عيد «واج»:

(١) قائمة (بما يقدمونه له):

قائمة بأسماء هيئة الموظفين	آنية قبي من الجعة	رغفان خبز قن	رغفان خبز أبيض
الكاهن الأعظم	٤	٤٠٠	١٠
الحاجب	٢	٢٠٠	٥
كاتم السر	٢	٢٠٠	٥

قائمة بأسماء هيئة الموظفين	آنية قبي من الجعة	رغفان خبز قن	رغفان خبز أبيض
حافظ الملابس	٢	٢٠٠	٥
رئيس الحجرة الواسعة	٢	٢٠٠	٥
المشرف على المعبد	٢	٢٠٠	٥
كاتب المعبد	٢	٢٠٠	٥
كاتب مائدة القربان	٢	٢٠٠	٥
المرتل	٢	٢٠٠	٥

(٢) أما ما قدَّمه مقابل ذلك فهو ٢٢ يومًا من أيام المعبد من متاعه الذي من بيت والده (إرثه من والده)، وليس من ضيعة حاكم المقاطعة، منها أربعة أيام لرئيس الكهنة ويومان لكل واحد من الآخرين.

(٣) وقال لهم: «انظروا! إن يوم المعبد هو $\frac{١}{٣٦٠}$ من السنة، ويجب أن تقسموا كل العطايا اليومية التي تدخل هذا المعبد، وهي التي تحتوي على خبز وجعة ولحم؛ وذلك لأن يوم المعبد، يحسب $\frac{١}{٣٦٠}$ من الخبز والجعة، وكل شيء يدخل المعبد لكل يوم من أيام المعبد هذه التي قدَّمتها لكم، واعلموا أنها متاعي الخاص من ضياع والدي، وليست من ضياع حاكم المقاطعة؛ لأني مثلكم ابن كاهن مطهر، ولاحظوا أن هذه الأيام «دخل المعبد»، يجب أن تنتقل إلى هيئة الموظفين المستقبلين الذين يعملون في المعبد؛ لأنهم هم الذين يقربون لي هذا الخبز والجعة التي يجب أن أعطاها.»

(٤) وقد سُروا بذلك.

الشرط الرابع

(٢٩٠–٢٩٥) الشرط الذي تعاهد عليه حاكم المقاطعة ورئيس الكهنة «زفاي حعبي» صادق القول مع كهنة الساعة لمعبد «وبوات» سيد «سيوط»:

(١) على أن يقدم له رغيف خبز أبيض من كل واحد منهم لتمثاله الذي في المعبد، وذلك في اليوم الثامن عشر من الشهر الأول من الفصل الأول، وهو يوم عيد «واج»، وأن

يخرجوا خلف كاهن روحه عند تنعيمه (أي جعله روحًا منعمًا) عندما ينار المصباح (الشعلة) له، وذلك على غرار ما يفعلون عند تنعيم أمواتهم المحترمين في يوم إنارة المصباح (الشعلة) في المعبد.

يضاف إلى ذلك أن هذا الخبز الأبيض يجب أن يكون في ذمة كاهن روحه، أما ما يقدِّمه في مقابل ذلك فكان حقيبة من الفحم لكل ثور، وسلة من الفحم لكل معزي، وهي التي كانوا قد اعتادوا أن يقدِّموها لمخزن حاكم المقاطعة عندما كان يقرِّب ثورًا أو معزي للمعبد، وذلك في مقابل ما يجب عليهم دفعه لمخزن حاكم المقاطعة، وهو يقدِّمها لهم دون أن يجبرهم على أخذها منهم عنوة.

(٢) وكذلك كان يقدم لهم ٢٢ إناء من الجعة و٢٢٠٠ رغيف خبز. وهذه كانت هيئة موظفي المعبد يقدمونها له في اليوم الثامن عشر من الشهر الأول من الفصل الأول، وذلك في مقابل ما يقدمونه، وهو رغيف خبز أبيض لكل فرد مما هو مستحق لهم في المعبد، وكذلك في مقابل تنعيمه (أي جعله روحًا منعمًا وهو احتفال خاص يقام على روح المتوفى).

(٣) ثم تكلم إليهم قائلًا: «إذا أخذ منكم هذا الفحم عنوة على يد أي حاكم مقاطعة في المستقبل، فاعلموا أن هذا الخبز وهذه الجعة يجب ألا ينتقص منها، وهي التي توردها لي هيئة موظفي المعبد، وهي التي قد أسلمتها لكم؛ تأملوا إني قد تعاقدت معهم عليها.»

(٤) وقد سُروا بذلك.

الشرط الخامس

(٢٩٦–٣٠١) الشرط الذي تعاقد عليه حاكم المقاطعة ورئيس الكهنة، «زفاي حعبي» صادق القول مع حافظ ملابس معبد الإله «وبوات»:

(١) لأجل ثلاث فتائل يُنار بها المصباح (الشعلة) للإله.

(٢) أما ما قدَّمه «زفاي حعبي» له (حافظ الملابس) في مقابل ذلك فكان ثلاثة أيام من أيام المعبد، وثلاثة الأيام من أيام المعبد هذه ستكون مستحقة لكل حافظ ملابس في المستقبل؛ لأن هذه الفتائل الثلاث تكون مستحقة له «زفاي حعبي».

(٣) ثم تكلم قائلًا: «إن واحدة من هذه (الفتائل) تقدَّم إلى كاهن روحي بعد أن يكون قد عمل بها ما يجب أن يعمله في المعبد، ويجب أن يعطى أخرى في يوم أول السنة

الجديدة في الفجر المبكر، وذلك عندما يقدم البيت إلى سيده بعد أن يكون كهنة الساعة للمعبد قد قدموا إلى هذا الخبز الأبيض، وهو الذي يجب أن يقدِّمه كل واحد منهم منفردًا في يوم أول السنة الجديدة، وسيقدم بوساطة كاهن روحي عند تنعيمي (أي تعطى له وتستعمل به).»

وسيعطى آخر.

في اليوم الثامن عشر من الشهر الأول الفصل الأول وهو يوم عيد «واج» في الوقت نفسه مثل الخبز الأبيض الذي يقدمه كل واحد من الكهنة المطهرين، وهذه الفتيلة ستخرج بوساطة كاهن روحي عند تنعيمي (الذي يحضره كهنة الساعة التابعون للمعبد)، ثم قال «زفاي حعبي» له: «انظر! إن يوم المعبد هو $\frac{١}{٣٦٠}$ من السنة، ويجب أن تقسَّم العطايا اليومية التي تدخل المعبد (وتحتوي على) خبز وجعة وكل شيء يدخل المعبد لكل يوم من أيام المعبد هذه التي قدمتها لك، انظر! إنها متاعي الخاص من ضيعة والدي ومن ضيعة حاكم المقاطعة.

والآن يجب أن تئول أيام المعبد الثلاثة هذه لكل حافظ الملابس في المستقبل (؟)؛ لأن هذه الفتائل واجبة له («زفاي حعبي»)، وهي التي قد حملتها لي بسبب أيام المعبد الثلاثة هذه التي حملتها لك وقدَّمتها لك.»

(٤) وقد كان مسرورًا بذلك.

الشرط السادس

(٣٠٢–٣٠٤) الشرط الذي تعاقد عليه حاكم المقاطعة ورئيس الكهنة «زفاي حعبي» صادق القول مع رئيس كهنة «وبوات» (أي مع نفسه):

(١) لأجل شواء، وهو الذي يوضع على مائدة القربان ويوضع على حجر القربان لكل ثور يذبح في المعبد، وإناء جعة «ستا» من كل $\frac{١}{٤}$ إناء دس.

في كل يوم «ظهور» (في المعبد).

وهي حق لكل رئيس كهنة في زمنه.

(٢) أما ما أعطاه «زفاي حعبي» له (أي رئيس الكهنة اسمًا) في مقابل ذلك؛ فهو يومان من أيام المعبد من ضيعة والده، ومن ضيعة حاكم المقاطعة.

(٣) وعندئذ تكلم «زفاي حعبي» قائلًا: هذا الشواء وإناء الجعة «ستا» سيقدم في كل يوم (ظهور التمثال في المعبد.

وهي مستحقة لتمثالي الذي في رعاية كاهن روحي.

(٤) وإنه «زفاي حعبي» بوصفه يحمل لقب رئيس الكهنة، كان مسرورًا بذلك في حضرة هيئة موظفي المعبد هؤلاء.

الشرط السابع

(٣٠٥-٣٠٦) الشرط الذي تعاقد عليه حاكم المقاطعة ورئيس الكهنة «زفاي حعبي» الصادق القول مع الكاهن المطهر الأعظم للإله «أنوبيس»:

(١) من أجل ثلاث فتائل يستحقها؛ لإنارة المصباح (الشعلة) في معبد «أنوبيس»، واحدة في اليوم الخامس من أيام النسيء في مساء يوم السنة الجديدة، وأخرى في يوم السنة الجديدة.

والثالثة في اليوم السابع عشر من الشهر الأول من الفصل الأول في مساء عيد «واج».

(٢) أما ما قدمه في مقابل ذلك فكان ٢٢ «أرورا» (مقياس) من الأرض المنزرعة في «سمارسي» من أرض والده، وذلك في مقابل ثلاث الفتائل التي سيعطيها كاهن روحي لأجل أن يضيء لي المصباح (الشعلة) بها.

(٣) وقد كان مسرورًا بذلك.

الشرط الثامن

(٣٠٧–٣١١) الشرط الذي تعاقد عليه حاكم المقاطعة ورئيس الكهنة «زفاي حعبي» الصادق القول مع كهنة الساعة لمعبد «أنوبيس»:

(١) من أجل أن يقدم له رغيف خبز أبيض من كل واحد منهم لتمثاله في اليوم السابع عشر من الشهر الأول من الفصل الأول في مساء عيد «واج»، ومن أجل أن يذهبوا بعد كاهن الروح عندما يُنار المصباح (الشعلة)، له عند تنعيمه إلى أن يصلوا إلى السلم السفلي (مزار الوادي) لقبره كما ينعمون موتاهم المحترمين في يوم إضاءة المصباح (الشعلة)،

ومن أجل التقدمة الشهرية التي يقدمها الكاهن المطهر، المؤلفة من طبق من الخبز وإناء من الجعة لتمثاله الذي في السلم السفلي (مزار الوادي) لقبره عندما يخرج لتأدية الاحتفالات في المعبد كل يوم.

(٢) أما ما قدمه لهم في مقابل ذلك فكان شعير الشمال من باكورة محصول كل حقل من ضيعة حاكم المقاطعة، كما يفعل كل رجل أسيوطي عادي يقدم من باكورة محصول حصاده. وعلى أية حال فإنه كان أول من جعل كل واحد يقدمها من باكورة حقله لمعبد «أنوبيس».

(٣) ثم قال حاكم المقاطعة «زفاي حعبي»: «انظروا فإنكم تعلمون أن أي رجل عظيم، أو أي رجل عادي يقدم باكورة حصاده للمعبد، ويمتنع عن أدائها ليس بالشيء الحسن له، على أنه لم يجد حاكم مقاطعة في عصره انتقص من الشرط الذي تعاقد عليه حاكم مقاطعة آخر مع الكهنة المطهرين في أزمانهم، وشعير الشمال هذا سيكون ملك كهنة الساعة التابعين للمعبد، كل على حدته، من الذين يقدمون لي هذا الخبز الأبيض، وإنه لن يقسم مع الكهنة في شهورهم؛ لأنه لزامًا عليهم أن يقدموا هذا الخبز الأبيض كل على انفراد.»

(٤) وقد كانوا مسرورين بذلك.

الشرط التاسع

(٢١٢–٢١٨) الشرط الذي تعاقد عليه حاكم المقاطعة ورئيس الكهنة «زفاي حعبي» الصادق القول مع مدير أعمال الجبانة وحراس الصحراء:

(١) من أجل أن يجعلهم يذهبون لمعبد «أنوبيس» في اليوم الخامس من أيام النسيء مساء السنة الجديدة.

وفي يوم السنة الجديدة.

بشأن تسليم فتيلتين قدمهما الكاهن الأعظم للإله «أنوبيس» المطهر إلى حاكم المقاطعة «زفاي حعبي»، وبشأن ذهابهم لتنعيمه إلى أن يصلوا إلى قبره، وبشأن تقديمهم الفتيلة (أي الخاصة بمساء السنة الجديدة) لكاهن روحه بعد أن نعموه كما ينعمون موتاهم المحترمين.

(٢) أما ما قدمه لهم في مقابل ذلك فكان ٢٢٠٠ (مقياسًا) من الأراضي الزراعية في «واعبت»، وهي من أملاكه الشخصية من ضيعة والده، وليست من ضيعة حاكم المقاطعة.

قائمة.

	أرض	
مدير عمال الجبانة	٤٠٠	
قائد الصحراء	٢٠٠	= ٢٨٫٤ أرورا (مقياس)
ثمانية حراس للصحراء	١٦٠٠	

وقد كان قدَّم لهم الجزء الأسفل من الجزء الخلفي من كل ثور ذُبح في الصحراء «لجبانة» في كل مزاراتها.

(٣) أما ما قدَّموه له فهو:

رئيس عمال الجبانة: إناءين دس من الجعة، ١٠٠ رغيف من خبز قفن، ١٠ أرغفة من الخبز الأبيض.

قائد الصحراء: إناء جعة، ٥٠ رغيفًا قفن، ٥ خمسة أرغفة من الخبز الأبيض.

الثمانية (حراس الصحراء): ثمانية آنية دس من الجعة، ٤٠٠ رغيف من خبز قفن، ٤٠ رغيفًا من الخبز الأبيض من أجل تمثاله الموكَّل به كاهن روحه، وذلك في اليوم الأول من الشهر الأول من الفصل الأول يوم أول السنة الجديدة عندما ينعمونه.

(٤) ثم قال لهم: «انظروا! إن هذه الأرض التي سلمتها لكم ستكون ملكًا لكل مدير عمال جبانة مستقبلًا، ولكل قائد صحراء، ولكل حارس جبانة مستقبلًا؛ وذلك لأنهم هم الأفراد الذين سيقدِّمون لي الخبز والجعة.»

(٥) وستكونون خلف تمثالي الذي في حديقتي وترافقونه [عندما يسير إلى معبد وبوات أو «أنوبيس»؟] في كل عيد أول فصل يقام في هذا المعبد.

(٦) وكانوا مسرورين بذلك.

الشرط العاشر: (٣١٩–٣٢٤)

(١) من أجل أن يقدم له إناء هبث من الجعة وفطيرة واحدة كبيرة (؟)، ٥٠٠ رغيف خبز قفن، ١٠٠ رغيف من الخبز الأبيض لتمثاله المنوط به كاهن روحه، في اليوم السابع عشر من الشهر الأول من الفصل الأول مساء عيد «واج».

(٢) أما ما قدمه «زفاي حعبي» في مقابل ذلك فهو ٢٫٢ أرورا من الأراضي الزراعية في «وعبت» من أملاكه الخاصة من ضيعة والده، وليست من ضيعة حاكم المقاطعة، والربع الأمامي من كل ثور يُذبح في الصحراء (الجبانة) في كل مزارات قبورها.

(٣) ثم قال لمدير الصحراء: «انظر! إن هذه الأرض ستنتقل لكل مدير صحراء مستقبلًا؛ وذلك لأنه هو الذي سيقدِّم لي هذا الخبز والجعة.»

(٤) وقد كان مسرورًا بذلك.

المرحوم حاكم المقاطعة ورئيس الكهنة «زفاي حعبي» صاحب الاحترام.

(٢) تصوير الاحتفالات الدينية التي كانت تقام للأمير «زفاي حعبي»

وسنضع أمام القارئ صورة من هذه الاحتفالات تخيلناها مأخوذة من نص العقود العشرة التي على جدران المقبرة؛ وقد أردنا بذلك أن نكسو عظام الحقائق التاريخية الجافة التي ذكرناها في هذه الشروط لحمًا ودمًا، ثم نبعث فيها روحًا يحركها فتصبح حية يراها القارئ ويتمثلها.

وقبل أن نورد هذه الصورة نقول: إن «زفاي حعبي» أقام لنفسه قبل وفاته تمثالًا في كل من المعبدين الرئيسيين في المدينة؛ أي إنه أقام تمثالًا في معبد الإله «وبوات»، وهو إله محلي قديم في صورة ذئب، ومن ذلك الاسم اشتقت المدينة اسمها اليوناني «ليكوبوليس» (أي بلد الذئب). أما التمثال الآخر فقد كان في معبد «أنوبيس» وهو إله معروف في صورة كلب أو صورة ابن آوى، وقد كان ذلك الإله يومًا ما من الآلهة المناهضين للإله «أوزير»، وكان معبد «وبوات» يقع في وسط المدينة في حين أن معبد الإله «أنوبيس» كان يقع بعيدًا عنه على ظاهر حدود الجبانة في سفح الجبل الذي نحتت في واجهته مقبرة «زفاي حعبي» على مسافة من ارتفاعه، وقد نصب في ذلك القبر الفخم كذلك تمثال لنفسه يقوم برعايته كاهنه الجنازي، ولم يكن له إلا كاهن واحد يُعنى بقبره ويقوم بالاحتفالات التي كان يرغب فيها في الحياة الدنيا قبل وفاته.

وأهم هذه الاحتفالات تلك التي كانت تقام في مناسبات الاحتفال بالسنة الجديدة، وكانت تقام قبل حلولها، وعند بدايتها، فكانت تقام قبل نهاية السنة القديمة بخمسة أيام في أول يوم من أيام النسيء الخمسة التي تنتهي بها السنة، فكان يُرى في ذلك اليوم كهنة الإله «وبوات» سائرين في موكب مخترقين شوارع «سيوط» وأسواقها، وكانوا في نهاية المطاف يخرجون من المدينة حاملين إلههم «وابوت» إلى معبد الإله «أنوبيس»، الذي كان يقع في سفح جبانة الجبل، وكان يذبح في ذلك المعبد ثور للإله الزائر؛ أي الإله «وبوات»، وكان كل كاهن؛ إذ ذاك يحمل بيده رغيفًا كبيرًا أبيض مخروطي الشكل، وعند دخولهم ساحة معبد «أنوبيس» كانوا يضعون أرغفتهم عند قاعدة تمثال «زفاي حعبي».

ثم بعد مضي خمسة أيام من ذلك التاريخ كان ينزل «مدير الجبانة» وبصحبته تسعة أفراد من موظفيه من فوق الجبل في وقت المساء مارِّين بأبواب القبور المفتحة، والتي كانت حراستها موكولة لهؤلاء الموظفين، ثم يدخلون في ظلال المدينة التي كانت في سفح ذلك الجبل. وكانت هذه المدينة في تلك الآونة من ذلك اليوم يخيم عليها الظلام؛ إذ كانت تقع في ظلال هذا الجبل المطل عليها، وكان هذا المنظر يحدث في مساء اليوم الأول من السنة الجديدة، وكانت الأنوار المبعثرة هنا وهناك، وهي التي أشعلت ابتهاجًا بالعيد قد بدأت تنبعث عند الشفق من داخل البيوت، ومن الشرفات، وأثناء انطلاق تلك الفئة في سيرها في الشوارع الضيقة الواقعة في أطراف المدينة كان يعترضهم فجأة في طريقهم الجدار العالي لسور معبد الإله «أنوبيس»، وعندما كانوا يدخلون من أبوابه العظيمة العالية يسألون عن الكاهن الأعظم الذي كان يقدم لهم على الفور حزمة من المشاعل فيأخذونها، ويعودون أدراجهم صاعدين في الجبل بتؤدة، فيشرفون على المدينة رويدًا رويدًا كلما تسلقوا الجبل مصعدين ثانية، وحينما كانوا يشرفون بأنظارهم من فوق الجبل على أسقف المدينة الملتفة في الظلام الدامس كانوا يكشفون في وسطها مجموعتين مشتعلتين من الأنوار المتلألئة، تقع إحداهما بالضبط تحت أنظارهم في حضيض الجبل، والأخرى تقع على مسافة بعيدة في قلب المدينة، فكانتا تشبهان جزيرتين متلألئتين بالنور في بحر من الظلمة يمتد إلى مسافة من تحت أرجلهم. وهاتان المجموعتان من النور هما ساحتا المعبدين اللذين كانت الأنوار تنتشر في أرجائهما.

وبالرغم من أن سيدهم القديم «زفاي حعبي» كان مدفونًا في بلاد النوبة النائية، فإنه كان حاضرًا معهم بتمثاله المقام في وسط تلك الأفراح والأعياد التي كانت حفلتها

تملأ ذينك المعبدين، فقد كان تمثاله المنصوب في المعبد يتكلم بعينيه اللتين يشرف بهما على الجموع التي كانت تزخر بهم هاتان الساحتان المختالتان بجمال أعمدتهما الزاهية، وكان التمثال يتمتع مثل أصدقائه الأحياء الموجودين أسفل منه بروح ذلك الفيض العميم الذي كان مبسوطًا أمامه، حينما كان يشاهد رغفان القربان موضوعة عند قدميه، وهي التي ذكرنا فيما سلف أن الكهنة كانوا يضعونها هناك، وكانت أذناه (أي التمثال) تُملآن بضجيج آلاف الأصوات التي كانت تتعالى مع أصوات الأفراح المنبعثة من جماهير المدينة المجتمعين بمعبدي الإلهين، يترقبون انقضاء ذلك العام الراحل، ويستقبلون أول العام الجديد، وكأن أصواتهم اصطفاق بحر يزخر بأمواجه ينبعث من بعيد فوق الأسقف المظلمة؛ إلى أن يصل جرسه المتضائل إلى آذان طائفة حرَّاس الجبانة المرتفعة القائمة بين ظلمات الجبال، وهم يشرفون على المدينة في صمت رهيب، وكانت تطل من فوق رءوسهم بالضبط واجهة تلك المقبرة التي كانت قد أعدت لتضم جثمان سيدهم الراحل «زفاي حعبي». وقد كان المتقدمون في السن من بين أولئك الحراس يذكرونه جيدًا أو يذكرون الكرم الذي طالما لاقوه على يده. أما المحدثون الذين كان في نظرهم اسم «زفاي حعبي» مجرَّد اسم لا يحمل معنى، فكانوا لا يجيبون إلا متباطئين، وعلى كره منهم، عندما كان شيوخهم يحثونهم على إضاءة أنوار القبر، وعندما كان يتعجلهم صوت كاهن «زفاي حعبي» من أعلى الجبل قائلًا: «لا تتأخروا أكثر من ذلك في إضاءة النور»، وعندئذ يخرج الشرر من قدح الزناد، وعلى أثر ذلك تُضاء أول شعلة، ومنها تُضاء المشاعل الأخرى بسرعة. وكان الموكب الذي يشمل أولئك الحرَّاس حول مرتفع من الجبل فسيح الأرجاء، ثم يعود الموكب ثانية إلى باب القبر العالي حيث يكون في انتظارهم كاهن «زفاي حعبي» فيدخلون توًّا إلى مزار القبر العظيم.

وكان يشاهد انعكاس أنوار تلك المشاعل المتلألئة في غير نظام فوق جدار ذلك المزار الذي تُرى فوق جدرانه صورًا ضخمة مرسومة للسيد الراحل، ترتفع عالية حتى تختفي رأسه وسط الظلمة التي لم تصل إليها أنوار تلك المشاعل المتضائلة، ويبدو على صورته كأنها تحثهم على تأدية واجباتهم نحوه بالدقة والعناية، كما هو مدوَّن بالعقود العشرة المنقوشة فوق جدار المزار نفسه وهي التي سبق ذكرها. وكان «زفاي حعبي» يبدو في الصورة مرتديًا لباسًا بهيجًا ومتوكئًا في رفق على عصاه التي بيده، وطالما كان المسنون من تلك الطائفة يرونه قائمًا في هذا الوضع وهو يفصل في القضايا التي كانت تُعرض عليه، بينما كان يساق المجرمون إلى داخل باب ديوانه بين صفين من ضباطه المتزلفين.

ويشاهد في حالة أخرى كأنه يراقب سير تقدم العمل في إحدى ترع الري الهامة حتى يفتتح بها زراعة جديدة، فكان هؤلاء الحراس يسجدون خضوعًا أمام صورته هذه المهيبة؛ يسوقهم إلى ذلك الدافع الطبعي الذي ليس لهم فيه اختيار، كما كان يسجد أمامه أيضًا الكُتاب، وأصحاب الحرف، والفلاحون الذين نشاهد صورهم تملأ الجدران التي أمامه. وقد لونت بألوان جميلة محفورة فوق الجدران، وهذا المنظر يمثل الصناعات والملاهي التي كانت تضمها تلك الضياع العظيمة التي كان يملكها «زفاي حعبي» وقتئذ، وهي تؤلف دنيا مصغرة يُرى فيها ذلك الشريف الراحل عندما كان يدخل مزار قبره، فكان يشعر أنه لا يزال يغدو ويروح بين مناظر حياة الرفاهية والملاذ في الحياة الدنيا، وكان يمثل هو فيها الشخصية البارزة العظيمة؛ إذ كان يخيل إليه أن جدران مقبرته قد رحبت واتسعت حتى صارت تشمل حقول زراعة عماله، وأسواقهم، ومصانع السفن، وأحواضها، ومستنقعات الصيد، والطيور، والأسماك، وردهات لإقامة الحفلات. وقد عمر النحات والرسام الجدران بتلك المناظر حتى صارت في الواقع كأن الحياة تدب فيها، وكانت المشاعل الموقدة تنبث حول القربان الخاص بمائدة القرب العظيمة المصنوعة من الحجر في المزار، وكان يقوم خلف ذلك تمثال «زفاي حعبي» في كوَّة منحوتة في أصل الجدار.

وبعد ذلك تنسحب جماعة الحرَّاس الصغيرة على مهل، ملقين عدة نظرات خاطفة على الباب الوهمي المقام في جدران المزار الخلفي، وكانوا يعرفون أن «زفاي حعبي» يمكنه أن يخرج منه من عالم الظلام المستتر خلف هذا الباب الوهمي ليدخل إلى عالم الأحياء، ويحتفل مع الأحياء من أصدقائه بعيد رأس السنة المذكور.

وأما اليوم التالي وهو اليوم الأول من السنة الجديدة فيعد أعظم أيام الأعياد في التقويم السنوي، وكانت تتبادل فيه الهدايا بفرح كما تتوافد أهل الضياع أيضًا يحملون الهدايا إلى سيد ضيعتهم، وإذا اتفق أن سلالة «زفاي حعبي» قد انهمكت في ملاذها وجرت فيها إلى آخر شوطها، فإن شروطه التي دونت بانتباه ويقظة في سجلات المدينة تضمن له الاهتمام بأمره، وعدم إهمال قربانه. وفي الوقت الذي كان فيه الفلاحون ومستأجرو الإقطاعات يشاهَدون مزدحمين عند الباب العظيم لبيت ذلك الشريف حاملين هداياهم لسيدهم الحي غير مفكرين في سيدهم الراحل؛ كان حراس الجبانة العشرة بقيادة رئيسهم يجتازون أطراف المدينة سائرين نحو أحد المخازن بالضيعة التي من حقهم أن يتزودوا منها، ثم لا يلبثون أن يعودوا أدراجهم حاملين ٥٥٠ فطيرة مستديرة

و٥٥ رغيفًا من الخبز الأبيض، ١١ إناء مملوءًا بالجعة، ثم يعودون من حيث أتوا يقتحمون طريقهم على مهل وسط مرح الزحام، حتى يصلوا إلى مدخل الجبانة عند سفح الجبل، فيجدون هناك زحامًا عظيمًا أيضًا، وكل واحد من أولئك المزدحمين محمل بمثل ما حملوا به. وإذا كان الطيبون من أهل «سيوط» يحملون عطاياهم من الأطعمة والشراب في وسط جلبة عظيمة من الأفراح القائمة وسط تلك المناظر الخلابة التي لا عداد لها من صور تلك الحياة الشرقية، فإن مثل ذلك يُشاهد إلى اليوم في الجبانات الإسلامية في مصر في أيام عيد الفطر وباقي المواسم والأعياد الإسلامية، ويقصدون إلى الجبل ويدخلون بما يحملون إلى أبواب المزارات العديدة التي كانت منتشرة في وجه الجبل على مثال خلية النحل في كثرتها، حتى تتمكن موتاهم من مشاطرتهم تلك الأعياد المرحة.

والواقع أن ذلك العيد يعد أقدم «عيد[٤] لكل الأرواح» وكان حراس الجبانة يسرعون إلى قبر «زفاي حعبي» بما لديهم من المؤن التي يسلمونها على الفور إلى كاهنه الجنازي، ثم يعودون أدراجهم حتى يحافظوا على النظام بين جمهور الشعب المرح الذي كان أفراده يتسلقون الجبل من كل مكان. وكلما بليت جدة النهار قامت المعدات اللازمة للاحتفالات المسائية على ساق وقدم من إشعال الأنوار وتنعيم المرحومين (أي جعل المُتوفَّى روحًا منعمًا) الذين ماتوا.

وكان حراس الجبانة مع كثرة نصيبهم من تأدية واجباتهم الشاقة طول اليوم بالجبانة المزدحمة، ينحدرون للمرة الثانية من فوق الجبل إلى معبد الإله «وبوات» بالمدينة حيث يكون جميع كهنة المعبد عن بكرة أبيهم في انتظارهم، وكان الكاهن الأعظم رئيسهم يقوم بتقديم عشرة المشاعل اللازمة لإنارة مقبرة «زفاي حعبي» فكانت تضاء في الحال المشاعل التي كانت تحملها الكهنة، ثم يتحرك بعد ذلك الموكب المؤلف من الحراس والكهنة معًا فيسير على مهل مجتازًا ساحة المعبد، ثم يخترق السور المقدس سائرًا نحو الركن الشمالي للمعبد كما يصف لنا ذلك العقد الذي أجراه «زفاي حعبي» مع الكهنة وهم يرتلون تنعيم[٥] «زفاي حعبي» (أي جعله روحًا منعمًا)، وكان كل كاهن يحمل

[٤] عيد يوم كل الأرواح هو عيد مسيحي، يعقد في اليوم الثاني من شهر نوفمبر، وفيه يعقد احتفال مهيب بالكنيسة الكاثوليكية الرومانية ليضرعوا إلى الله لأرواح الأموات المخلصين.

[٥] إن طبيعة هذا الاحتفال الذي كان يحتفل به الأحياء في عيد رأس السنة وغيره لأجل الأموات ليس واضحًا في تفاصيله، غير أنه لا بد كان يعبر عما يدل عليه اسمه.

معه رغيفًا كبيرًا مخروطي الشكل من الخبز الأبيض كالذي سبق أن وضعوا مثله أمام تمثال «زفاي حعبي» في معبد «أنوبيس» منذ خمسة أيام مضت. وكان الكهنة عندما يصلون إلى الركن الشمالي من المعبد يعودون ثانية إلى القيام بواجباتهم في وسط المحراب المزدحم بدهماء الشعب، وكانوا بطبيعة الحال يسلمون رغفانهم إلى حراس الجبانة؛ لأن هذه الرغفان كانت كما نص العقد خاصة بتمثال «زفاي حعبي» الذي في قبره. أما موكب الحراس الصغير المؤلف من عشرة أشخاص فكان يطوف في شوارع المدينة المتألقة بالأنوار والحراس يقتحمون طريقهم بمشقة عظيمة وسط زحام الشعب، وفي النهاية يخترقون الباب العظيم لمعبد «أنوبيس» حيث تكون الأنوار قد بلغت غايتها من البهجة والرواء، ولم ينسَ في ذلك تمثال «زفاي حعبي»، وحينما كان الموكب يظهر خارج المدينة ثانية كانوا كذلك لا يزالون يشقون طريقهم بصعوبة بسبب دهماء الناس الذين كانوا يسيرون في نفس طريقهم. وكانت واجهة الجبل المظلمة التي تشرف عليهم يتخللها هنا وهناك أقباس من النور تسير وئيدة مصعدة فوق الجبل، وكانت تلك الأنوار صادرة من مشاعل أهل المدينة الذين صعدوا مبكرين، ووصلوا إلى الجبانة لوضع تلك الأنوار هناك أمام تماثيل أمواتهم ومقابرهم. وأما الحراس فإنهم صعدوا إلى مقبرة «زفاي حعبي» كما فعلوا الليلة المنصرمة، وسلموا المشاعل والخبز الأبيض لكاهن «زفاي حعبي» الذي كان في انتظارهم.

وهكذا يشترك ذلك الشريف المُتوفَّ وأولاده ورعاياه الأحياء في الاحتفال بأعياد رأس السنة، وخلافًا لتلك الأعياد وغيرها من الأعياد العظيمة التي كان يتمتع بها المُتوفَّ بتلك الكيفية فإنه لم ينسَ في أي عيد من الأعياد الرسمية الصغيرة التي كان يحتفل بها في أول كل يوم من الشهر وفي منتصف الشهر، أو في أي يوم من الأيام المحتفَل بها. وأما حاجاته اليومية فكان يقوم بها طائفة خارجة عن هيئة الكهنة تخدمه بالتناوب بمعبد «أنوبيس»؛ لأن ذلك المعبد كان على مقربة من الجبانة، فكان أولئك الخدم يذهبون في كل يوم بعد الفراغ من تأدية أعمالهم في المعبد حاملين نصيبًا من الخبز، وإناء مملوءًا بالجعة ويضعونها أمام تمثال «زفاي حعبي» الذي يكون منصوبًا فوق السلم السفلي لقبره، وعلى ذلك كان لا يمضي يوم واحد من أيام السنة لا يتسلم فيه «زفاي حعبي» ما يلزمه من الطعام والشراب. هذه صفحة من الحياة المصرية من الناحية الدينية والاجتماعية تركها لنا «زفاي حعبي» في قبره في مصر، وإن مثل تلك المعتقدات والعادات لتدل على شدة استمرار تعلق قدماء المصريين بتلك الأعمال المادية الخاصة بالحياة في

عالم الآخرة التي هي الضمان الوثيق لاستمرار بقاء جثمان المُتوفَّى بعد الموت، بالرغم مما ظهر من الأفكار التي ألقت ضوءًا جديدًا على ضرورة التحلي بالأخلاق العظيمة استعدادًا لاستقبال الحياة الآخرة فيما بعد الموت.

على أن استمرار إمداد ذلكم الشريف المُتوفَّى بمثل هذا العتاد المادي الذي قدمنا وصفه إلى الأبد، كان من غير شك متخيلًا؛ ولذلك قال «خنوم حتب» أحد الأمراء الإقطاعيين في مقاطعة الغزال فيما يختص بأوقافه الجنازية: أما فيما يختص بالكاهن أو بأي شخص آخر يعبث بها فإنه لن يستمر بعد، وكذلك ابنه لن يستمر بعده في هذا المكان (أي لن يبقى مشرفًا على حراسة مقبرته) فيظهر من خوف ذلك الشريف المذكور من عدم دوام تقديم القرابين له بعد الموت، ومثل هذه المخاوف كانت منتشرة يكثر ذكرها في الوثائق التي من هذا النوع. هذا؛ وقد شاهدنا أن «زفاي حعبي» أمير «سيوط» كان يبدي مخاوفه من إحجام الخلف عن تقديم القربان اللازم للحياة الآخرة، وليس هذا بغريب، فنحن أبناء هذا العصر الحديث لا يكاد يدفعنا البر نحو الاهتمام بأي قبر من قبور أجدادنا الذين رحلوا عنا إلى الحياة الآخرة منذ زمن بعيد نسبيًّا، بل في بعض الأحيان لا نكاد نعرف أين دُفنوا بالضبط، فضلًا عن مواقع مقابرهم.

وقد كان كهنة «أنوبيس» و«وبوات» وحراس الجبانة في «سيوط» يؤدون واجباتهم ما دام كاهن «زفاي حعبي» الجنازي يتسلم مرتباته، وما دام مخلصًا في القيام بالتزاماته، بأن يذكرهم بالقيام بما عليهم من الواجبات وأن يلاحظ تنفيذها.

ونحن نعلم تمام العلم أن مثل هذه الأوقاف كانت تستمر نافذة المفعول إلى ما بعد تغير الأسرة نفسها، وكانت تمكث على أقل تقدير حوالي ثلاثين أو أربعين سنة في منتصف القرن الثامن والثلاثين قبل الميلاد.

(٣) احترام مقابر الأجداد في هذا العصر

وفي القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد نجد أنه كان هناك احترام كبير في مصر العليا لأجداد الدولة القديمة؛ إذ ذاك، فقد قام حكام مقاطعة «البرشة»؛ أي المقاطعة الخامسة عشرة من مقاطعات الوجه القبلي في القرن التاسع عشر والعشرين ق.م، بإصلاح مقابر أجدادهم التي يرجع عهدها إلى عصر الأهرام، وكذلك المعبد أو المزار الذي كشف عنه في «أسوان» وهو الذي أصلحه «سرنبوت» ويرجع عهده إلى الدولة القديمة وهو «لحقا اب».

وكذلك نجد أنه في عهد ملوك الدولة الوسطى كان الملوك قد حافظوا على إقامة الشعائر في معابد بعض ملوك الدولة القديمة، فقد عثرنا فعلًا على تمثال جالس من الحجر الرملي الصلب بالقرب من «بو الهول» وقد نقش على حجره الدعاء التالي:

> قربان يقربه الملك و«بتاح سكر» و«أوزير» سيد «شتيت» و«أونوبيس» الذي يقطن في جبله، والذي في لفائفه رب الأرض المقدسة (ليعطوا) ألفًا من الخبز والجعة والخمر والبقر والإوز والملابس إلى روح الكاهن «سخمت حتب» الذي وضعته «سان أميني».

في معبد ملك الوجه القبلي والوجه البحري «نفر أركارع» الصادق القول، وهذا دليل قاطع على أن معبد هذا الإله كان موجودًا في هذا العصر في جهة «بوصير».

وهذه المقابر والمزارات كان قد مضى عليها حينئذ أكثر من ٦٠٠ سنة، وكانت متداعية مشرفة على العفاء والخراب، وقد اعتاد الحاكم البار لكل مقاطعة أن يسجل ما يقوم به من الإصلاحات بالكلمات التالية:

> إنه (يعني حاكم المقاطعة)، قد عملها بصفتها أثرًا للأجداد الذين في الجبانة، وهم أرباب هذا المرتفع، فأصلح ما قد وجده مخرَّبًا، وجدَّد ما قد وجده مهدَّمًا، ولم يقُم الأجداد الذين كانوا من قبله بذلك.» ثم نجد أن أشراف هذه المقاطعة قد استعملوا تلك الصيغة في مقابر أجدادهم خمس مرات، كما نجد أن «أنتف» أمير «أرمنت» قد اتبع نفس هذه الطريقة حيث يقول: «لقد وجدت مزار الأمير «نخت بوكر» آل إلى الدمار، فجدرانه قديمة وتماثيله محطمة، ولم يعتنِ به أي إنسان؛ فبنيته من جديد، وزدت في بنائه، وجدَّدت تماثيله، وأقمت أبوابه بالحجر حتى يصبح مكانه ممتازًا عن أماكن الأمراء العظام الآخرين.

وكان القيام بمثل هذا البر للأجداد الراحلين نادرًا جدًّا، ومع ذلك فإن القيام بمثل هذه الأعمال التي ذكرناها لم تكن لها فائدة، إلا أن تؤخر مئونة وقوع اليوم المشئوم الذي تزول فيه تلك الآثار الجميلة، والمدهش في ذلك أنهم كانوا مع وجود مقابر أجدادهم مخرَّبة أمامهم وأحيانًا يخرِّبونها بأيديهم، لا يزالون يقيمون لأنفسهم الأضرحة التي كان لا بد أن تلقى محتوياتها نفس المصير من النهب والسلب والنسيان المطلق، ولا أدل على ذلك مما نشاهده في قبر «خنوم حتب» الذي يعد أكبر القبور التي تركها لنا أمراء

مقاطعة الغزال «بني حسن»؛ إذ نجد بين الرسوم الملونة الجميلة التي على جدرانها كتابات قد حُشرت حشرًا بين الكتابات القديمة الأصلية يرجع تاريخها إلى ١٢٠ جيلًا من الناس. وقد خطها كاتبوها على عجل باللغة المصرية القديمة، وكذلك باللغة القبطية والعربية والفرنسية، والإيطالية والإنجليزية.

وأقدم هذه الكتابات كانت لكاتب مصري قديم دخل هذا المزار المذكور منذ ٣٠٠٠ سنة مضت، وقد كتبها باليراع بمداد أحمر فوق الجدار وهذا نصها:

> لقد حضر الكاتب «أمين سي» ليرى معبد «خوفو» وقد وجده كالسماء يسطع فيها النجوم.

وهذه العبارة كانت قد كُتبت هنا بعد أن مضى على بناء المقبرة نحو ٧٠٠ سنة من زيارته، فنرى من ذلك أنه على الرغم من أن صاحبه الأمير «خنوم حتب» كان من أعظم أمراء عصره فإن ذلك الزائر على ما يظهر قد نسي كل شيء من أمره؛ ولذلك فإنه لما وجد اسم «خوفو»، قد كُتب عرضًا فوق الجدار في سياق نقش جغرافي، ظن خطأً أن ذلك المزار هو مزار الملك «خوفو» باني الهرم الأكبر في جبانة «الجيزة». وهذا الحادث يدل دلالة واضحة على أن كل معرفة بهذا الأمير العظيم قد اختفت، وبالطبع كانت أوقافه الجنازية التي كانت تمده في عالم الآخرة قد أصبحت في زوايا النسيان التام، وذلك بالرغم من تلك الاحتياطات التي قام بتسجيلها فوق جدران قبره؛ ولذلك فإن اللعنات التي كانت تُكتب على جدران المقابر لتضر بمن يعبث بها كانت تافهة ولا فائدة منها، وقليلة الجدوى. وقد حاول المصري القديم أن يجد علاجًا يضمن به المُتوفَّى سعادة خالدة، فقام بنقش صلوات وأدعية فوق واجهة قبره كان يعتقد أنها ذات تأثير في إمدادها للمتوفى في الآخرة بكل ما يحتاج إليه فيها، فيضمن لنفسه بذلك الحصول على السعادة في الآخرة؛ فكان لذلك يستحلف كل من يمر على قبره أن يقدم الاحترام له؛ بأن يتلو على قبره تلك الأدعية المنقوشة «أنتم يا من تمرون بهذا القبر بقدر ما تحبون الحياة وتكرهون الموت، وترغبون في أن يحبكم آلهة مدنكم، ويكافئوكم، وبقدر ما ترغبون في أن يرث أولادكم مكانتكم: قولوا قربانًا ملكيًّا من الأطعمة والملابس والزينة … إلخ إلى فلان.» وتلك الأدعية توضح لنا الاعتقاد في مقدار ما كان لتلك الكلمات من التأثير الفعال، حينما كانت تُقرأ من أجل المتوفى. وقد انتشرت أمثال تلك الصيغ الدينية انتشارًا عظيمًا منذ عصر الأهرام، فكان ذلك تدرجًا يسير مع تعميم هذه العادات الجنازية التي كانت وقتئذ خاصة بالطبقة

العليا من الشعب فصارت إذ ذاك حقًّا للطبقة المتوسطة وبطائفة الموظفين على السواء. وكان مثل تلك الصيغ الدينية في عهد الأهرام ينحصر استعماله في عهود الأهرام المتأخرة فقط، وكانت هذه الصيغ خاصة بمصير الفرعون في عالم الآخرة، ولكن صارت الطبقة الوسطى مع طائفة الموظفين يستعملونها بكثرة.

(٤) ظهور متون التوابيت

ونجد كذلك في الوقت نفسه أنه ظهر في عالم الوجود طائفة أخرى من «الأدب الجنازي» وهو ما يسميه علماء الآثار «متون التوابيت» وهي صيغ مشابهة لسابقتها وتتحد معها كل الاتحاد في القيام بوظيفتها، غير أنها كانت أكثر ملائمة لحاجات الإنسان العادي من أي شخص آخر من الطبقات العالية؛ ولذلك كان كل دهماء الشعب يستعملونها في ذلك الوقت؛ أي في العهد الإقطاعي. وقد كان ما يسمى «كتاب الموتى» الذي جاء فيما بعد مؤلفًا من منتخبات أُخذت من «متون التوابيت»، وهذه كانت في الواقع تتألف من مقتبسات كثيرة أخذت من «متون الأهرام»، وكانت تكتب في هذا العصر على أوجه التوابيت الداخلية المصنوعة من خشب الأرز. ولا يزال عدد تلك المتون الجنازية آخذًا في الازدياد؛ إذ تكشف الآن توابيت جديدة من ذلك العصر تضاف متونها إلى المجموعة التي وُجدت من قبل. وكان كهنة كل بلدة يمدون كل صانع محلي لهذه التوابيت بنسخ من تلك المتون أو التعاويذ، وكان الكُتاب المختصون بملاحظة صانع التابوت قبل تركيب قطعه يملئون أوجهه بالكتابة بالقلم والمداد، وذلك بتدوين نسخ من هذه المتون.

وكانت كلها تدوَّن بدون اعتناء وعدم دقة؛ إذ كان مجهود الكُتاب إذ ذاك منصرفًا إلى ملء تلك الألواح المؤلفة لأوجه التابوت بالكتابة بأسرع ما يمكن؛ حتى إنهم كانوا في بعض الأحيان يكررون كتابة الفصل الواحد مرتين أو ثلاث مرات فوق نفس التابوت الواحد، وقد وجدنا الفصل الواحد قد كتب ما لا يقل عن خمس مرات فوق تابوت[٦] بعينه

[٦] إن متون التوابيت هذه يتألف منها أعظم وأكبر مجموعة من المصادر الدينية المصرية التي بُدئ في نشرها الآن، وقد ظهر جزءان فعلًا. ويوجد من هذه التوابيت مائة بالمتحف المصري، وهذا خلافًا لما يوجد في المتاحف الأوروبية والأمريكية، ومجموعها كلها ١٣٨ تابوتًا. وفي عام ١٩٢١ أخذ معهد جامعة «شيكاجو» الشرقي على عاتقه إنقاذ هذه المجموعة الضخمة من الأدب الديني المصري من الضياع فهو

(انظر شكل ١ [الحياة الدينية في عهد الدولة الوسطى]) وقد لا يكون ذلك إهمالًا من الكاتب أو مجرد ملء الفراغ الذي أمامه بالكتابة، بل يكون ذلك التكرار مقصودًا؛ وذلك لأجل أن يضمن بقاء صيغة من هذه الصيغ إذا ضاعت أو هُشمت الأخرى.

أما فيما يختص بالجزء الذي اتحدت فيه «متون التوابيت» هذه مع «متون الأهرام»، فإنا قد ألفنا وظيفتها ومحتوياتها؛ وذلك لأن عالم الآخرة الذي كان يتطلع إليه أهل هذا العهد الإقطاعي كان لا يزال إلى درجة عظيمة عالمًا سماويًّا وشمسيًّا كما كان في عصر الأهرام؛ أي إن عبادة الإله «رع» كانت العبادة السائدة في ذلك الوقت، ولهذا فإن «متون التوابيت» تكشف لنا عن السيادة المدهشة التي كانت لتلك الآخرة السماوية؛ إذ نجد نفس توحيد المُتوفَّى مع إله الشمس كالذي وجدناه في متون الأهرام.

فمثلًا يوجد فصل عنوانه «صيرورة المُتوفَّى رع آتوم» (Lacau, Ibid, P. 100).

ثم عدة فصول أخرى عنوانها «صيرورة المُتوفَّى صقرًا» (Lacau, Ibid, P. 37) وهو الطائر المقدس الممثل لإله الشمس.

وعلى أية حال فإن اللاهوت الأوزيري الذي كان قد أخذ في الانتشار بصفة واضحة منذ الأسرة الخامسة قد تدخل في «متون التوابيت» بل في الواقع استولى عليها كما تدخل كذلك في «متون الأهرام» بالضبط، وأحسن مثال لذلك هو المتن الذي صار فيما بعد جزءًا من «كتاب الموتى» باسم الفصل السابع عشر،[٧] وقد أصبح في العهد الإقطاعي الذي نحن بصدده من الفصول المحبوبة؛ إذ نجده يتقدَّم على كل المتون الأخرى المكتوبة على عدة من التوابيت، وهو في جملته يعبر عن توحيد المُتوفَّى مع إله الشمس ولو كان يظهر معه بعض الآلهة الآخرين أيضًا.

الآن يقوم بنشرها تباعًا، وقد قام الدكتور «دي بك» بنقل هذه المتون فاستغرق عشر سنين وقد تم نقلها الآن، وهذه النسخ تحتوى على ٣٠٠٠٠ سطر و٦٨٢٥ صفحة من المخطوطات (De Buck, "The Egyptian Coffin Texts", Vols. I and II).

[٧] Grapow, "Religiose Urkunden", Sprúch 17.

إذ يقول الرجل المتوفى:

إني «آتوم» وأنا الذي كنت وحيدًا
وإني «رع» عند أول ظهوره
وإني الإله العظيم خالق نفسه
والذي سوى أسماءه ورب الآلهة
والذي لا يدانيه أي إله بين الآلهة
وأمس ملكي وإني أعرف الغد.

وقد عثر على شرح لهذا المتن القديم يرجع تاريخه إلى العهد الإقطاعي، وهذا الشرح كُتب بصفة تعليق على السطر الذي جاءت به عبارة «أمس ملكي» «وإني أعرف الغد» ففسر هذا السطر بقول الشارح: «ذلك هو «أوزير»»، مع أنه من الواضح تمامًا أن هذا النص كان خاصًّا بإله الشمس فقط كما يُفهم من سياق الكلام.

ولقد كان من جراء صبغ تلك المتون بالصبغة الأوزيرية، أن أدخل العالم السفلي الذي كان خاصًّا بأوزير في المتون الشمسية والسماوية، وبهذه الكيفية لم يكن لدينا في متون التوابيت مجموعة المعتقدات الشمسية والأوزيرية وحسب، وهي التي امتزج بعضها بالبعض الآخر بحالة أتم وأكثر مما كانت عليه من قبل، بل كانت النتيجة أن «رع» إله الشمس قد حشر الآن في عالم الآخرة السفلي الخاص «بأوزير»، وعلى ذلك يمكن عرض الحوادث في ذلك الصدد بصورة تشعر بشيء من المبالغة إذا قلنا إن «أوزير» في «متون الأهرام» قد رفع إلى السماء في حين أننا نجد أنه في «متون التوابيت» و«كتاب الموتى» قد أنزل «رع» من مقره السماوي إلى الأرض، ولكن الارتباك «اللاهوتي» الذي نتج عن ذلك كان أدهى وأمرَّ مما جاء في متون الأهرام؛ فقد تم الامتزاج بين المصير السماوي المتألق الفاخر وبين عالم آخر مظلم واقع في ظلمات العالم السفلي، وبجانب ذلك مثوى سماوي.

وإنه لمن الأمور الصعبة أن يكوِّن الإنسان أية فكرة متصلة الحلقات عن الحياة في عالم الآخرة التي كان يأمل أهل ذلك العصر الوصول إليها؛ إذ نجد الصورة الشمسية الأوزيرية المركبة وهي التي ذُكرت في متون الأهرام، وفيها قد أرخى أولئك الكهنة الذين ترجع إليهم كل الارتباكات التي نجدها في «متون التوابيت» لخيالهم العنان يجول كيف يشاء.

فالمتوفى المصري القديم الذي كان يشاطره «أوزير» مصيره — وكان كذلك يُسمي «أوزير» ابنه «حور» (ابن أوزير) — يُسمِع نفسه كلمات الخضوع والوعد بالسعادة، الموجهة إليه من ابنه المقدس «حور»، على أن مثل تلك الصور كانت تنتقل فجاءة فتغير امتيازات شمسية كما يأتي هكذا:

> إنك تطوف حول الأقطار مع «رع» فهو يجعلك ترى الأماكن الممتعة، وتجد الأودية مفعمة بالمياه لغسلك وإنعاشك، فإذا أنت تقطف أزهار البطاح ونوار «هني» وزهور السوسن، والزئبق، وتأتي إليك طيور البرك آلافًا جاثمة في طريقك، وعندما ترمي مقمعك لصيدها يسقط منها ألف برنين صوته وتشمل الإوز، والعصفور الأخضر والسمان، وطيور «كونست»، وقد أمرت بأن يؤتى إليك بالغزلان الصغيرة والعجول البيض، وأمرت بأن يحضر إليك الجَدَّاء والكباش المسمنة بالحبوب، وقد ربطت لك سلم السماء، والإلهة «نوت» تفتح لك ذراعيها، وإذا أنت تسبح بسفينتك في بحيرة الزئبق.

ففي هذا المتن نشاهد المُتوفَّى يصطاد في الأودية والبطاح؛ وهي التسلية المحببة إلى الفرعون وأشرافه، ولكنا نلاحظ أن المؤلف ينتقل فجاءة إلى بحيرة علوية في عالم السماء.

ومع أن ذلك المصير الذي نجده خاصًّا بالملوك في كل الصيغ التي جاءت بها متون الأهرام قد صار الآن على هذا النحو من نصيب كل إنسان من الشعب، فإن الحياة التي كانت أبسط من تلك التي وصفناها، وهي التي كان الفرد المتواضع يعيش فيها ويصبو إلى دوام استمرارها معه في عالم الآخرة فيما بعد الموت؛ كان يلحظ وجودها كذلك أيضًا في متون التوابيت. فكان المُتوفَّى حيثما يكون وضعه في التابوت يمكنه أن يقرأ تعويذة خاصة، ببناء بيت لرجل[^٨] في العالم السفلي، وحفر بركة لحديقة، وغرس أشجار فاكهة. وعندما كان المُتوفَّى يصير صاحب بيت تحيط به الحديقة والبركة حولها الأشجار الوارفة، فإنه كان يحب أن يضمن استيطانه فيه، ومن ثم كان لا بد له من فصل يتضمن وجود الرجل في بيته،[^٩] غير أن سكناه هذا البيت منفردًا من غير مرافقة أسرته وأصحابه كانت

[^٨]: Lacau, “T. R.” LVII, P. 114.

[^٩]: Ibid, XXXIV; P. 84.

فكرة لا يمكن احتمال وجودها؛ ومن ثم كان يوجد كذلك فصل آخر لذلك عنوانه «ختم[١٠] مرسوم خاص بالأسرة وإعطاء الرجل أهل بيته في العالم السفلي.» ونجد في المتن الخاص بهذا الفصل أن تفاصيل المرسوم قد عُينت خمس مرات مختلفة في أشكال مختلفة، فنجد «أن الإله «جب» إله الأرض قد قرر بأن أهل بيتي يعطون إليَّ وهم أولادي وإخوتي ووالدي ووالدتي وعبيدي وكل عقاري.» وخشية أن ينتزعها منه أي شيطان رجيم نجد الفقرة الثانية من هذا الفصل تؤكد «أن «جب» قد قال إنه سيطلق لي في الحال سراح أهل بيتي أي أطفالي وإخوتي وأخواتي ووالدي ووالدتي وكل عبيدي وعقاري ناجين من كل إله ومن كل إلهة ومن كل متوفى (غيره) أو أي إنسان ميت غيره»، ولضمان تنفيذ ما جاء بهذا المرسوم كان يوجد فصل آخر أيضًا عنوانه «ضم[١١] أهل بيت الرجل في العالم السفلي.

وبهذا الفصل كان يتم اجتماع شمل أهل البيت من الأب والأم والأطفال والأصدقاء والأقارب والأزواج والحظيات والعبيد والخدم وكل ما يملكه الرجل ليكون معه في العالم السفلي، مع أن فكرة إعادة بيت الرجل وأهل بيته إليه في عالم الآخرة كانت تتضمن الاعتقاد القديم بضرورة تقديم الطعام باستمرار إلى المتوفى، ومن ثم كان يوجد فصل آخر لذلك عنوانه «فصل[١٢] في أكل الخبز في العالم السفلي»، أو أكل الخبز على مائدة «رع» وبذل الرخاء في «هليوبوليس»، ويظهر لنا في الفصل الذي يلي هذا الفصل مباشرة في متون التوابيت كيف «أن القاعد يقعد ليأكل الخبز عندما يقعد «رع» ليأكل الخبز أيضًا، أعطني خبزًا عندما أكون جائعًا، وأعطني جعة عندما أكون عطشان.» وقد ظهر لنا في متون التوابيت هذه اتجاه ظاهر جدًّا سنراه بعد، وقد انتشر انتشارًا تامًّا بحسب الغرض الذي قصد منه، وهذا الاتجاه ينحصر كذلك في أن عالم الآخرة هو مكان الأخطار والمشاق التي لا عدد لها، وأن معظم تلك الأخطار مادية، وإن كانت في بعض الأحيان خاصة بتأهيل المُتوفَّى وإعداده إعدادًا عقليًّا. وكان السلاح الذي يستعمل للنجاة من تلك الأخطار والمشاق يعد أضمن الوسائل التي يمكن الحصول عليها لحماية المتوفى؛ وذلك بتمكن المُتوفَّى من بعض القوى السحرية التي كانت في العادة رقية خاصة تتلى عند

[١٠] .Ibid, LXXII, P. 116

[١١] .Lacau, “T. R.” II, P. 9

[١٢] .Ibid, III, P. 15

اللحظة الحرجة، وقد تحوَّل هذا الاتجاه الفكري بعد ذلك فصار «متون التوابيت» ثم صار في النهاية «كتاب الموتى» الذي جعل من هذه المتون مجموعة من التعاويذ تزداد على مر الأيام، وكانت تعتبر في نظر القوم لا محالة ذات أثر فعال في حماية المتوفى، أو تضمن له في الحياة الأخروية الحصول على أي نعيم كان يحبه في الحياة الدنيا (Lacau, "T. R.", LXXVIII, P. 126).

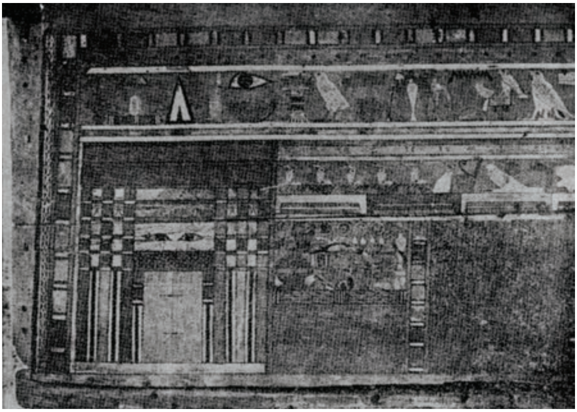

شكل ١: تابوت من الخشب من عهد الدولة الوسطى.

وعلى ذلك كانت توجد تعويذة يصبح بها المُتوفَّى ساحرًا، وهي موجهة إلى الأفراد المنعمين الذين في حضرة «آتوم» إله الشمس، وهذه التعويذة في ذاتها رقية تُختم بالكلمات التالية: «إني ساحر». وخوفًا من فقدان المُتوفَّى قوَّته السحرية كان هناك احتفال يحتوي على وضع رقية سحرية مع المُتوفَّى حتى لا تُنزع منه قواه السحرية حينما يكون في العالم السفلي، مع أن أبسط هذه الأخطار التي من أجلها أُلفت هذه الرقى كان منشؤه من غير شك التخيلات الصبيانية الساذجة التي كان دهماء الشعب يتخيلونها، وكانت تكون في غالب الأحيان سخيفة إلى أقصى حد؛ إذ نجد تعويذة عن منع أخذ رأس الرجل منه، مع أنه يوجد في متون الأهرام الرقية القديمة التي تمنع إجبار المُتوفَّى على أكل براز نفسه (Lacau, "T. R." XXIII, P. 66)، أو شرب بوله. وكان لا بد لجسم الإنسان

من التحلل، ومن ثم كان يوجد لمنع هذا التحلل رقيتان حتى لا يتحلل جسمه في العالم السفلي (Lacau, "T. R." XXV, P. 73)، وقد كان من جراء ثقة الإنسان العمياء بمثل هذه التعاويذ أن صار في يد الكهنة فرصة لا حد لها بما تدره عليهم من الكسب الوفير، وقد كان في مخيلاتهم باضطراد إنتاج التعاويذ الجديدة باستمرار، وقد كانت تباع هذه التعاويذ مثل صكوك الغفران في القرون الوسطى في أوروبا بطبيعة الحال إلى المشترين السذج الذين كان عددهم يزداد على الدوام. وقد ساعدت هذه الوسيلة كثيرًا على ازدياد مخاوف الشعب من أخطار ومشاق الحياة الآخرة، كما ساعدت على نشر الاعتقاد في كفاية مثل هذه الطرق لدرئها. ويجب علينا أن نتعرف عمل أولئك الكهنة، وكان يمثل في صورة كاتب سري اسمه «جيجا» (Lacau, "T. R.", IX, P. 26)، وهو يعد عدوًّا للموتى؛ من أجل ذلك أُلفت رقية خاصة لمساعدة المُتوفَّى على تكسير القلم، وتهشيم أدوات الكتابة، وتمزيق الملفات الخاصة «بجيجا» الشرير.

وكذلك نجد أن الخطر المهدِّد الذي كان يتقَى شره في متون الأهرام هو مهاجمة الثعابين السامة للمتوفين، وكان أهل العهد الإقطاعي كذلك يحبون أن يدرءوا هذا الخطر نفسه عنهم؛ ولذلك كان يوضع مع المُتوفَّى لفافة فيها رقى لأجل دفع الثعبان ودفع التماسيح عنه (Lacau, "T. R.", LXXIII, P. 119)، وفضلًا عن ذلك كانت الطريق الخاصة بالمتوفى معرقلة بالنيران، وكان لا بد له من الهلاك المحتم، إذا لم تكن لديه رقية ليخرج بها من النار أو يتمكن بها من الخروج من النار خلف الإله العظيم.[١٣]

وعندما كان المُتوفَّى يضطر بالفعل إلى الدخول في النار كان في قدرته أن يدخلها في أمان منها بوساطة «تعويذة لدخول النار والخروج من النار خلف السماء.» والواقع أن الكهنة قد رسموا للمتوفى مصورًا للسياحة التي ينتظر أن يقوم بها ليكون مرشدًا له عند باب النار العظيم في المدخل ليريه الطريقين اللتين يمكنه أن يستأنف منهما سيره، وقد كانت إحدى تينك الطريقين برية والأخرى مائية، وكان بينهما بحيرة من نار، وكان هذا المصور ملونًا بالألوان المختلفة على مسطح قعر التابوت من الداخل؛ حيث يكون جثمان المُتوفَّى فوقها؛ إذ إن ذلك المكان هو الملائم لرسم مصور العالم السفلي فيه، وكان مع هذا

[١٣] لقد أصبح من الثابت تقريبًا أن سيدنا «إبراهيم» كان يعيش في هذا العصر؛ أي عصر الدولة الوسطى الذي ظهرت فيه متون التوابيت، وربما كان من معجزات هذا العصر الدخول في النار والخروج منها بالسحر ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ (قرآن كريم). (Lacau, "T. R.", XLVIII, P. 95).

المصور دليل سحري أيضًا يسمى «كتاب[١٤] الطريقين» وكان كذلك مكتوبًا فوق رقعة التابوت، على أنه كان يحتمل أن يحدث بالرغم من كل هذه الإرشادات أن المُتوفَّى لسوء حظه قد يجول في مكان إعدام الآلهة، ولكنه كان ينجو من ذلك بتعويذة تسمى «عدم الدخول في مكان إعدام الآلهة».

وخوفًا من أن يُحكم على المُتوفَّى بالمشي منكسًا على رأسه؛ فإنه كان يجهز بتعويذة تمنعه المشي على رأسه منكسًا (Lacau, "Textes Religieux Egyptiens, XLIV, P. 91)، وكان أولئك الموتى التعساء الذين حُكم عليهم بالمشي المنكس أشد أعداء الإنسان في عالم الآخرة؛ ولذلك كانت الحيطة منهم أمرًا ضروريًّا جدًّا؛ إذ يقال للمتوفى: «إن الحياة تأتي إليك ولكن الموت لا يسعى إليك ... وهي «الجوزاء والشعرى ونجم الصباح» تنجيك من حنق الموتى الذين يمشون ورءوسهم إلى أسفل وأنت لست منهم ... استيقظ للحياة فإنك لن تموت، قم للحياة فإنك لن تموت.»

وبهذه الحالة كان الاعتقاد في قوة تأثير السحر آخذًا في الانتشار، وكان بمثابة سلاح لا يخطئ في يد المتوفى، وسنرى في النهاية أن السحر يسود كل المعتقدات الجنازية الأخرى، كما سيكشف لنا ذلك «كتاب الطريقين» الذي دوِّن في هذا العصر ثم «كتاب الموتى» الذي جاء بعد مضي عدة قرون على ذلك العهد الذي نحن بصدده؛ إذ ليس من شك في أن المذهب الأوزيري كان له أثر عظيم في انتشار استعمال هذه الطرق السحرية الجنازية. ولا شك في أن أسطورة «أوزير» التي كانت منتشرة في هذا الزمن انتشارًا عامًّا قد جعلت كل طبقات الشعب يعرفون نفس هذه الطرق التي اتخذتها «إزيس» لإحياء زوجها «أوزير» من الموت، وهي تلك الطرق التي كان يعتقد كل مصري قديم أنها ذات تأثير عظيم في عالم الآخرة، كما كانت ناجعة التأثير بالنسبة إلى «أوزير» من قبل. وبقدر ما كان مذهب «أوزير» قويًّا في عصر الأهرام فإن انتشاره العام الآن في العهد الإقطاعي كذلك قد فاق كل انتشار معروف سبق من قبل؛ إذ نجد فيه ظفر ديانة الشعب التي كانت مناهضة وقتئذ لعبادة «رع» الحكومية، وهي التي كانت تشبه أية كنيسة معترَف بها الآن. وقد كانت سيادة «رع» تعتبر ظفرًا سياسيًّا، أما ظفر ديانة «أوزير» التي كان

[١٤] كتاب الطريقين متون سحرية لم تظهر أولًا إلا في عهد الدولة الوسطى على توابيت من مقاطعة الأشمونين، وسنتكلم عنها في فصل خاص لأهميتها (راجع: Lacau, "Sacrophages Anterieurs au Nouvelle Empire", Vol. I, PP. 189 198, 207–221; Vol. II, PP. 26 ff. Pls. LV, LVII).

يشد أزرها بلا ريب طائفة من مهرة الكهنة وربما كانوا يقومون لها بدعاية مستمرة وقتئذ؛ فإنه لم يكن في طاقة أية طائفة، ولا طاقة الحكومة، ولا الأشراف مناهضتها؛ وذلك لأن النعم التي كان يقوم بإغداقها المصير الأوزيري في الحياة الآخرة على كل الناس يجعلها ذات جاذبية قوية شاملة لا تناهضها أية جاذبية أخرى منافسة لها، وإذا كانت تلك النعم المذكورة في زمن ما قاصرة على الفرعون وحده كما كان المصير الشمسي في متون الأهرام قاصرًا عليه، فإننا قد شاهدنا أنه حتى الآخرة الشمسية الملكية قد صارت الآن من حق الجميع يستوي فيها الفرعون مع بقية أفراد الشعب.

(٥) الحج إلى بيت أوزير

ومن بين القبور المحترمة التي يرجع تاريخها إلى عهد الأسرات الأولى في «العرابة المدفونة» قبر كان يعتبره القوم في ذلك الوقت قبر «أوزير» وقد صار بسرعة المقام المقدس في القطر المصري، فكانت تحج إليه كل طبقات الشعب. وكانت أعظم البركات التي ينالها الإنسان هي أن يُدفن بجوار ذلك القبر المقدس؛ ولذلك كان كثير من الموظفين عند قيامهم بمأمورية رسمية، أو رسالة في هذه الجهة ينتهز الفرصة لإقامة قبر له هناك، وإذا تعذر عليه بناء قبر حقيقي كان يقيم الإنسان لنفسه مقبرة وهمية على الأقل، ويكتب عليها اسمه وأسماء باقي أفراد أسرته وأقاربه، وإذا تعذر ذلك أيضًا أقام لنفسه لوحة تذكارية ينقش عليها أدعية للإله «أوزير» العظيم خاصة بالزائر وأسرته، وقد فعل مثل ذلك كثير من الحجاج والزوار من الموظفين لهذه البقعة المقدسة؛ ولذلك يقول موظف من عهد الفرعون «سنوسرت الأول»: «لقد أقمت هذا القبر عند طريق سلم الإله العظيم لأكون من أتباعه، والجنود الذين يأتون في ركاب جلالته يقدمون إلى روحي «كا» من خبزه ومئونته، كما يفعل ذلك كل رسول ملكي يأتي للتفتيش على حدود جلالته.»

وكان داخل سور معبد الإله «أوزير» وما يجاوره مزدحمًا بتلك اللوحات التذكارية، وهي كما نجدها اليوم تؤلف جزءًا هامًّا من المصادر التي يصح الاعتماد عليها في تدوين تاريخ ذلك العصر من الوجهات السياسية والاجتماعية والدينية.

(٦) زيارة جثمان المُتوفَّى «العرابة المدفونة»

وقد كان في قدرة كل واحد من حكام المقاطعات القوية أن يُحمل جثمانه إلى العرابة المدفونة بعد وفاته لتقام له شعائر خاصة هناك، ثم يجلب معه بعض التذكارات المقدسة لتوضع معه في قبره المقام له في مقاطعته، كما يحمل المسلمون معهم الآن الماء من «بئر زمزم» إلى أوطانهم، وكما كانت تحمل السيدات الرومانيات المياه المقدسة من معبد «إزيس» «بالفيلة» إلى حيث يتبركون بها في الجهات البعيدة عنها. وقد رسم «خنوم حتب»[١٥] فوق جدران مزار قبره «ببني حسن» هذه السياحة في النيل، وفي ذلك المنظر نرى جسمه المحنط محمولًا في قارب جنازي صاعدًا في سيره نحو الجنوب، وخلفه الكهنة والمرتلون، وتسمى هذه النقوش «السياحة صعودًا في النهر لمعرفة أشياء العرابة»، ويوجد مع هذا المنظر منظر آخر يظهر فيه سياحة المُتوفَّى منحدرًا مع التيار في النهر، وقد فُسر بالكلمات الآتية: العودة محملين بأشياء «العرابة»، ولا ندري كنه هذه الأشياء المقدسة بالضبط، ولا سبيل لدينا للآن لمعرفتها، غير أنه من الواضح أن الغرض من تلك الزيارة الخاصة بالإله العظيم في العرابة المدفونة هو أن يقدم المُتوفَّى نفسه شخصيًّا للإله العظيم، وبتلك الكيفية يضمن لنفسه عطف الإله في الحياة الأخرى.[١٦]

وهكذا كان الزوَّار الذين يأتون إلى «العرابة المدفونة» قبل الوفاة وبعده يحملون معهم القرابين التذكارية، وهي التي يعثر عليها خلال أعمال الحفر الآن مدفونة على بُعد عميق تحت كومة عظيمة من الفخار المهشم ومعها كثير غيرها من الهدايا الأخرى التي تركها هناك الحجاج، الذين وفدوا على هذا المكان المقدس مدة آلاف السنين، ولا بد أنه

[١٥] Newberry, B. H., Vol. I, Pl. XXIX.

[١٦] والواقع أن هذين المنظرين قد رُسما ليوضحا لنا السياحة للعرابة المدفونة، وواضح من النقوش «السياحة صعودًا في النهر والعودة»، ومن المناظر المرسومة نفسها أن السياحة إلى «العرابة» والعودة منها هي التي مثلت، فالسفينة الصاعدة إلى أعالي النيل؛ أي ضد التيار نشاهد شراعها منتشرًا بهيئة توحي بذلك، على حين أن السفينة الأخرى التي للعودة يشاهد أن ساريتها قد أُزيلت من مكانها كما جرت العادة عند السير مع التيار في أيامنا هذه، وفضلًا عن ذلك فإن كلتا السفينتين تشاهَد فعلًا في الرسم الذي على جدران القبر المذكور، واحدة منها ذاهبة إلى «العرابة» والأخرى عائدة منها. على أن هذا الرسم للعودة والذهاب لا يقتصر على هذا المنظر فقط، بل نجد ما يماثله في سفن الملكة «حتشبسوت» المرسومة على جدران معبد الدير البحري ذاهبة إلى بلاد «بنت» وآتية منها.

كان يجتمع هناك الجم الغفير من أولئك الحجاج الزائرين لذلك المقام المقدس بالقطر المصري في كل العصور، وبخاصة في ذلك الموسم الذي كانت تمثل فيه حوادث أسطورة الإله في شكل مسرحي يمكننا أن نسميها بحق مسرحية الآلام أو المأساة.

مسرحية آلام أوزير

وبالرغم من أن تلك المسرحية قد فُقدت تمامًا فإن لدينا لوحة «إخرنوفرت» التذكارية المحفوظة الآن بمتحف برلين تمدنا الملخص الذي يمكننا به أن نستخلص، ولو على أقل تقدير عناوين أهم فصول المسرحية المذكورة. ولا نزاع في أن هذه المسرحية قد مثلت أهم الحوادث الواردة في أسطورة «أوزير» وقد كان «إخرنوفرت» ضابطًا من ضباط الملك «سنوسرت الثالث»، وكان قد أرسله ليقوم ببعض الإصلاحات في معبد «أوزير» «بالعرابة المدفونة»، وقد ذكر في لوحته الأمر الملكي، ثم ذكر لنا بعد ذلك كيفية تنفيذه.

وهاك ما جاء في هذه اللوحة العظيمة بعد ذكر مقدمة لا داعي لنقلها هنا: (Breasted, A. R., Vol. 1, Par. 661) «أمر ملكي للأمير الوراثي، والحاكم، وحامل الخاتم الملكي، والسمير الوحيد، وسيد بيتي الذهب، وسيد بيتي الفضة، ووزير المالية، «إخرنوفرت» المعظم، أمر جلالتي أن تذهب إلى «العرابة المدفونة» لتقيم آثارًا لوالدي، «أوزير أول أهل الغرب»؛ وذلك لتزيين مكانه السري بالذهب، الذي أمر جلالتي أن أحضره من «النوبة» العليا فائزًا منتصرًا. انظر! إنك ستعمل ذلك قربانًا لإرضاء والدي «أوزير»، ومنذ أن أرسلتك جلالتي فإن قلبي متأكد بأنك ستقوم بعمل كل شيء حسب رغبة جلالتي، ولقد كنت ممن درَّبتهم جلالتي، وتعليمك منحصر في القصر، وعينتك جلالتي عندما كنت لا تزال حدث السن في السادسة والعشرين من عمرك، وقد عمل جلالتي هذا؛ لأني رأيت أنك رجل ممتاز في أخلاقه، سلط اللسان منذ نشأتك، وملم بالكلام. وقد أرسلتك جلالتي لتقوم بهذا؛ لأن جلالتي قد عرف أنه ليس هناك فرد آخر يعملها ويحرز صفاتك الحسنة، فأسرع في الذهاب، وافعل حسب كل ما أمر به جلالتي.»

ثم يتلو ذلك ما قاله وزير المالية إطاعة للأمر.

«لقد نفذت التعليمات حسب كل ما أمر جلالته، فزينت كل ما أمر به سيدي، من أجل والده «أوزير أول أهل الغرب» ورب «العرابة» العظيم، المهيمن، الواحد القاطن في «طينة» ولقد أنبت عنه بوصفي «ابنًا يحبه» (أي بدل الملك) لأجل «أوزير» أول أهل الغرب، وزينت «القبر» العظيم إلى أبد الآبدين، وصنعت له محفة (سميتها) «حاملة جمال

أول أهل الغرب» من الذهب والفضة واللازورد، والخشب والعطر والخشب الخرنوب، وخشب المرو. وكذلك صنعت آلهة تاسوعه المقدس، وعملت لها مقاصير جديدة، وجعلت كل كاهن غير محترف يقوم بواجباته، وجعلتهم يعرفون شعائر كل يوم، وأعياد أوائل الفصول، وأشرفت على صنع القارب المقدس، وصنعت مقصورته، ورصعت جسم رب «العرابة» باللازورد والفيروز، والذهب وكل الأحجار الثمينة، وذلك بين الحلي التي كانت من قبل على أعضاء الإله (تمثاله)، وألبست الإله ثوبه بحكم وظيفتي رئيسًا للأشياء السرية وقيامًا بواجبي بصفتي كاهنًا، وكنت طاهر اليد نظيفها عند تزيين الإله، وكاهنًا نظيف الأصابع.

ولا نزاع في أن كل ما ذكر مفيد جدًّا؛ لأنه يكشف لنا عن بعض الشعائر الخاصة بعبادة الإله «أوزير»، وبعد ذلك يقص علينا طورًا فريدًا من أطوار حياة الإله «أوزير» خاصًّا بإحياء ذكرى موته وبعثه في «العرابة» فيقول: احتفلت بطلعة الإله «وبوات»، عندما طلع ليحارب والده، وأقصيت العدو من القارب المقدس وهزمت أعداء «أوزير»، واحتفلت بالطلعة العظيمة مقتفيًا الإله عند ذهابه، وجعلت القارب المقدس للإله «تحوت» يجري على «البحيرة المقدسة»، وجهزت القارب مضيئًا حقًّا لرب «العرابة» بمقصورته، وألبسته حلته عندما خرج ذاهبًا إلى القرية (الجبانة الملكية)، وقدت طريق الإله إلى قبره أمام «بقر» ونازلت «نفر»؛ أي «أوزير» في يوم الشجار العظيم، وذبحت كل الأعداء على شاطئ ماء «نديت» وحملته إلى القارب المسمى العظيم عندما كان يحمل جماله، وأدخلت السرور على قلب المرتفعات الشرقية، وأوجدت الانشراح في المرتفعات الغربية، ولما رأوا جمال القارب المقدس عندما رسا في «العرابة المدفونة»، أحضروا «أوزير أول أهل الغرب»، ورب «العرابة المدفونة» إلى قصره، ومشوا خلف الإله حتى بيته ليحتفلوا بشعائره عندما يعود إلى مسكنه، وحللت عقدة (المقصورة) في وسط أتباعه وبين حاشيته.

وقد تبين لنا من هذه العناوين المدونة بتلك اللوحة التذكارية عن المسرحية المذكورة أنه كان لا بد من أن يستمر تمثيلها عدة أيام، وأنه كان من الجائز أن يستمر تمثيل كل فصل من فصولها الهامة على أقل تقدير يومًا كاملًا، وأن الجمهور كان يشترك في كثير مما كان يحدث فيها، وإننا ندرك من ذلك المختصر المدَّون على لوحة «إخرنوفرت» أن تلك الرواية كانت ذات فصول ثمانية.

فالفصل الأول يكشف لنا عن ذلك الإله الجنازي القديم «وبوات» خارجًا في موكب ليشتت أعداء «أوزير» ويفتح له الطريق (ومن ثم اشتق هذا الاسم).

وفي الفصل الثاني يظهر «أوزير» نفسه في قاربه المقدس الذي ينزل فيه بعض الحجاج ومنهم «إخرنوفرت» كما يقص ذلك علينا في نقوش لوحته التذكارية بزهو وافتخار، وكان «إخرنوفرت» هذا يساعد «أوزير» في صد الأعداء الذين يعرقلون سير القارب، ولا شك في أنه كانت تحدث بين الجمهور؛ إذ ذاك معركة عامة كالتي شاهدها «هرودوت» في بابريمبس، بعد ذلك الحادث بألف وخمسمائة سنة — فكان بعضهم يقوم بحماية الإله في القارب، بينما يمثل الآخرون دور أعدائه المزدحمين في خارج القارب برءوسهم المهشمة في زهو من أجل ذلك الاحتفال.

ويلحظ هنا أن «إخرنوفرت» هذا قد مر على موضوع قتل الإله مر الكرام دون أن يذكر شيئًا من ذلك، كأن ذلك في نظره موضوع مقدس لا يصح وصفه.

وقد ذكر لنا فقط أنه قام بتنظيم «الموكب العظيم» للإله، وهو احتفال مظفر نوعًا ما عندما لاقى الإله حتفه، وهذا كان موضوع الفصل الثالث.

وفي الفصل الرابع: يخرج «تحوت» رب الحكمة، ولا شك أنه مجدَّ الجثة، وإن كان ذلك لم يرِد ذكره. ويتألف الفصل الخامس: من الاحتفالات المقدسة التي يجهز الإله بوساطتها للتحنيط. في حين أن الفصل السادس: يشاهد الجمهور يسير في زحام عظيم إلى المقام المقدس بالصحراء التي خلف «العرابة المدفونة» حيث يضعون جثمان ذلك الإله الراحل في قبره.

وأما الفصل السابع فلا بد أنه كان مشهدًا رائعًا، فعلى شاطئ (أو ماء) «نديت» القريبة من «العرابة المدفونة» تهزم أعداء «أوزير» بما فيهم الإله «ست» وأتباعه بطبيعة الحال في موقعة عظيمة على يد «حور» بن «أوزير». ولم يذكر لنا «إخرنوفرت» شيئًا عن بعث الإله وقيامه ثانية من بين الأموات.

ولكن في الفصل الثامن نشاهد «أوزير» وقد عاد إلى الحياة يدخل إلى معبد «العرابة المدفونة» في موكب مظفر.

فكان من الواضح إذن من كل ما ذكر أن «المسرحية» المذكورة قد مثلت أهم الحوادث الواردة في أسطورة «أوزير».[١٧]

وقد كان لمثل ذلك العيد الشعبي الكبير مكانة عظيمة في نفوس القوم؛ إذ نشاهد مرارًا وتكرارًا قيام الحجاج بالصلاة للإله العظيم لينالوا بعد الموت حظوة الاشتراك في

---

١٧ Breasted, “Dawn”, PP. 245, 246; M. Kamal, A. S. XXXVIII, p. 272.

هذا الاحتفال العظيم، وهذا يماثل بالضبط ما رتبه «زفاي حعبي» لنفسه فيما بعد الموت ليشاطر بنصيبه في الاحتفالات بالأعياد في «سيوط».

وهكذا كان لصياغة حوادث أسطورة «أوزير» في شكل مسرحي أثر قوي في نفوس عامة الشعب.

على أن مسرحية مأساة «أوزير» هذه في أي شكل من أشكالها قد استولت على خيال المجتمعات المصرية، فهي بالضبط كما قد وجدها «هرودوت» فيما بعد في «باريمبس»، وكانت؛ إذ ذاك تنتشر من بلدة إلى أخرى لتحوز المكانة الأولى في تقويم الأعياد السنوية؛ وبهذه الكيفية نال «أوزير» مكانة سامية في حياة عامة الشعب وآمالهم لم ينلها إله آخر. وقد كان مصير «أوزير» الملكي الذي صور بهذه الصورة المسرحية الناطقة سببًا في انتشار الاعتقاد بين الشعب، بأن هذا المصير الذي كان في وقت ما (عصر الأهرام) وقفًا على الفرعون فقط قد صار من نصيب كل الناس؛ ولم يكن يلزم لأي شخص كان يريد مثل هذا المصير إلا أن يحصل كما ذكرنا من قبل على نفس العوامل السحرية التي استعملتها «إزيس» لإرجاع الحياة ثانية إلى زوجها الميت وهو «أوزير» المقتول ظلمًا بيد أخيه «ست»، وهذه العوامل تجلب لكل إنسان هذا المصير المبارك الذي ناله هذا الإله العظيم الراحل.

وقد كان محتمًا حدوث مثل ذلك التدرج في تلك العقيدة الجنازية (الشعبية) كما شاهدناه من قبل حتى صارت ثقة الناس بها تزداد باضطراد دالة على كفاية السحر وقوة تأثيره ونفعه في الحياة الآخرة.

(٧) أثر السحر في نفوس الشعب في هذا العهد بخاصة

وإنه لمن الصعب أن يفهم العقل الحديث الذي لم يندمج في أفكار هؤلاء القوم الدينية وتاريخهم، كيف أن مرافق الحياة جميعها قد تسرب إليها الاعتقاد في السحر بحالة صيرته صاحب السيطرة على السعادة الشعبية، وكان ذلك ظاهرًا على الدوام حتى في أبسط الأحوال المنزلية العادية؛ إذ صار من الأشياء التي يزاولها الإنسان بطبيعة حياته كالنوم أو تجهيز الطعام، فقد صار السحر يتألف من نفس الجوِّ الذي كان يعيش فيه أهل الشرق قديمًا.

وقد كانت الحياة المنزلية في الشرق قديمًا غير ممكنة إلا بالالتجاء إلى نفوذ تلك العوامل السحرية الناجعة، التي كانت تستعمل على الدوام، والتي لولا نفوذها لأبادت القوى المهلكة الخفية كل البشر كما كانوا يعتقدون، وبخاصة عند العامة.

ولما كان من الضروري استعمال هذه الطرق ضد الأمراض بخاصة؛ فإن الوسائل العادية المتعلقة بالحياة المنزلية والاقتصادية كانت توضع دائمًا تحت حماية السحر فكانت الأم[١٨] لا يمكنها أن تهدئ من روع طفلها المتألم المريض وتجعله يضطجع طلبًا للراحة إلا بعد الاستنجاد بالقوى الخفية لتقوم بتخليص هذا الطفل من المرض، ومن الحسد، ومن سلطان أشباح الشر السوداء التي كانت تنزوي في أحد أركان البيت المظلمة،[١٩] أو التي كانت تتسلل من الأبواب المفتحة عندما يسدل الظلام خيامه فوق البيت حتى تدخل جسم هذا الطفل الصغير فتنتشر فيه. وكان من أشباح الشر الشيطان الذي يمكنه أن يتشكل في صورة محبوبة ثم يتقرب من المريض الصغير مظهرًا له أنه في قدرته أن يشفيه من أوجاعه أو تخفيف آلامه. ويمكننا أن نستمع — حتى في أيامنا هذه — إلى صوت الأم وهي منحنية على طفلها ترنو إليه بنظراتها السريعة من هذا الباب المفتوح في تلك الظلمة المسكونة بقوى الشر هذه وتقول: «أسرع إلى الخارج أنت يا من يأتي في الظلمة، ويا من يدخل إلينا خلسة، وأنفه إلى خلفه، ووجهه ملتفت إلى الوراء، ويا من تفقد من قد جئت من أجله.

هل تأتي لتقتل هذا الطفل؟ إني لن أسمح لك بقتله
هل تأتي لتخفف آلامه؟ إني لن أسمح لك بتخفيف آلامه
هل تأتي لتضره؟ إني لن أسمح لك أن تضره
هل تأتي لتأخذه؟ إني لن أسمح لك بأن تأخذه مني

لقد أعددت ما يحميه منك من نبات «افت» إنه يسبب الآلام؛ ومن البصل الذي يلحق بك الضرر، ومن الشهد الحلو المذاق (للأحياء) من الرجال ومر المذاق لمن هنالك (يعني الموت)، ومن الأجزاء المؤذية من سمك «ابدو» ومن فك «مررت»، ومن العمود الفقري للسمك …»

[١٨] (Erman, Zauberspruche für Mutter und Kind, aus dem Papyrus 3027 des Berliner Museums).

[١٩] هذه العادات لا تزال مستعملة حتى الآن في ريف مصر وصعيده بين الطبقات الدنيا، وحتى بين علية القوم الذين تستحوذ على أفكارهم الخرافات الموروثة.

ولم تكن الأم الوجلة على ابنها تستعمل هذه التعويذة المذكورة بمثابة رقية وحسب، وإنما كانت تتبعها بمزيج شهي تعطيه الطفل المريض فيبتلعه، وهو مزيج مصنوع من الأعشاب والشهد والسمك، وكان خاصًّا بطرد الشياطين المرجومة التي كانت تعذب المرضى من الأطفال ذكورًا وإناثًا مهدِّدة بانتزاع حياتهم. كما نجد في وصف الشهد بأنه حلو المذاق (للناس الأحياء)، ومرُّ المذاق لمن هم هنالك (الموتى).

فكان الواضح إذن أن من الشياطين من يخاف الإنسان بأسه؛ لأن بعضهم يكونون هم نفس الأموات الذين تجردوا من أجسامهم؛ ولذلك كانت حياة أهل الدنيا في تصادم مع الأموات طوال مدة حياتهم في هذه النقطة، فكان من اللازم حينئذ العمل على كبح جماح أولئك الأموات الأشرار، ووقفهم عند حدودهم؛ ومن هنا كانت التعاويذ والحيل السحرية التي دلت على تأثير فعلهم ضدهم في الحياة الدنيا لها قيمتها في الحياة الآخرة أيضًا، فإن هذه الرقية السالفة التي منعت أخذ الطفل بعيدًا عن أمه يمكن استعمالها كذلك ضد من يسعى لسلب قلب أي رجل في العالم السفلي، فلأجل أن يتمكن الرجل المُتوفَّى من الدفاع عن نفسه يقول «هل حضرت لتأخذ قلبي هذا الحي: إن قلبي هذا الحي لن تُعطاه».

وعلى ذلك فإن الشيطان الذي يريد أخذ قلبه ليضر به كان يتسلل بعيدًا عنه لا محالة، وبتلك الطريقة كان السحر الذي يستعمل في الحياة الدنيا يستعمل بحالة مضطردة في الحياة الآخرة، وكان الأموات يعرفونه؛ إذ كانت تعاويذه توضع تحت تصرفهم.

(٨) تعميم المحاكمة العامة أمام الإله

ونعرف أن الاعتقاد الديني لم يكن يحتم في عهد الأهرام وجود محاكمة عامة تجري على كل الناس في الحياة الآخرة؛ لأن الأمر وقتئذ كان يتطلب حضور المذنب للمحاسبة في عالم الآخرة عن ذنب خاص اقترفه، فكان إله الشمس يعقد هناك محكمة للفصل في أمثال تلك القضايا، ولكن في العهد الإقطاعي كان إله الشمس يعلن أن كل إنسان مسئول عن خطيئته كما يستدل على ذلك من «متون التوابيت»: «لقد جعلت كل رجل مثل أخيه، وقد حرمت عليهم إتيان الشر، ولكن قلوبهم هي التي تعصي ما قلت.» وقد ذكرنا في النصائح الموجهة إلى «مر يكارع» ما يأتي: «إن ذنوب الرجل كانت تكوَّم بجانبه كالجبال في حضرة القضاة المهابين في عالم الآخرة.» ولذلك فإن حياة الإنسان

مهما كانت نقية فإنه كان من مستلزمات معتقدات هذا العصر الإقطاعي أن ينتظر الإنسان ريثما يجتاز المحاكمة الخلقية للحصول على السعادة المنشودة في الحياة الآخرة، وقد صار ذلك الشعور بالمسئولية الخلقية فيما بعد الموت من العوامل القوية في حياة الشعب المصري القديم، غير أنه كان هناك عاملان قويان يعملان على هدم تلك المسئولية وهما؛ أولًا: استمرار اعتقاد عامة الشعب في كفاية العوامل المادية مثل إقامة القبور مع إعداد معداتها لضمان سعادة المُتوفَّى في الحياة الآخرة. ثانيًا: الاعتماد الزائد على نفع قوة السحر في عالم الآخرة، وهو الاعتقاد الذي نال تشجيع الكهنة الذين تطرفوا في ابتداع تعاويذه، واشتطوا فيها إلى حد أنهم حاولوا إنتاج تعاويذ سحرية تنفع المُتوفَّى في ضمان قبوله خلقيًّا عند محاكمته في عالم الآخرة.

ورغم انتشار العقائد الشمسية والأوزيرية في عهد الدولة الوسطى فإن ملوكها كانوا متمسكين بعبادة آلهتهم المحلية، ففي الأسرة الحادية عشرة كانت عبادة «منتو» هي السائدة حتى جاءت الأسرة الثانية عشرة فأصبح ملوكها يعتنقون عبادة إلههم المحلي «آمون»، ولما كانت عبادة هذا الإله في «طيبة» وكيفية ظهوره في أواخر عهد الأسرة الحادية عشرة، ثم انتشار عبادته في عهد الأسرة الثانية عشرة وما بعدها آثرنا أن نتبع خطوات ظهوره في عهد الدولة الوسطى.

(٩) ظهور الإله آمون وعبادته في الدولة الوسطى

تدل الآثار المكشوفة حتى الآن على أن عبادة الإله «آمون» رغم أنه الإله المحلي لمدينة «طيبة» منذ الأزل كما تقول النقوش الدينية لم يُذكر اسمه إلا في عهد الأسرة الحادية عشرة، وحتى هذا التاريخ لم يذكر إلا أربع أو خمس مرات؛ أولًا: يحتمل أن الأمير «واح عنخ أنتف عا» يشير في لوحته الرئيسية التي وجدت في قبره إلى تجهيز معبد «آمون» وإعداد سفنه المقدسة.

(Lange Und Schafer, “Grab und Denkstein”, 20512, II and 6), (Sethe, “Amun und die Acht Urgotter”, Par. 9, 54). ثانيًا: أمنمحات (آمون في مقدمة الآلهة)، وهو الذي أصبح فيما بعد أحد رجال بلاط «حور نخت نب تب نفر-أنتف» لا بد أنه كان قد ولد في عهد «واح عنخ» هذا نفسه، ولوحته في متحف متروبوليتان (14, 2, 6). ثالثًا: يحتمل وجود إشارة أخرى إلى معبد آمون على لوحة مهشمة في الجبانة التي دفن فيها «واح عنخ» (Pterie, “Qurneh”, P. 17, Pl. X; Sethe, “Amun”, Par.

II). رابعًا: جاء ذكر اسم السيدة «أمونت» وقد سميت باسم الإلهة التي كانت تعتبر زوج الإله «آمون»، وهذه السيدة لا بد قد وُلدت وسميت بهذا الاسم في باكورة حكم الفرعون «نب حبت-رع»، فقد وجد على أكفانها السنة الخامسة والثلاثون من حكم هذا الملك، وكذلك في السنة الثامنة والثلاثين، ويحتمل الثانية والأربعين من حكمه أيضًا. وقد قال الدكتور «دري» الذي فحص جسمها فحصًا علميًّا إنها كانت امرأة في مقتبل العمر. (A. J. S. L., Vol. 58, P. 158, Note 60).

وقد ولد «أمنمحات الأول» الذي أصبح فرعونًا فيما بعد في نفس حكم هذا الفرعون، ولكن في نهايته، وقد عاش بعد الأسرة الحادية عشرة ليحكم البلاد لمدة ٣٠ عامًا. وخلافا للقليل الذي ذكرناه عن «آمون» فإنا لا نعرف شيئًا عنه قط قبل الأسرة الثانية عشرة.

أما الأستاذ «زيته» فيريد أن يقول إن الإله آمون رغم ذكره في متون الأهرام فإن عبادته قد أدخلت في «طيبة» على يد أميرها «حور واح عنخ-أنتف عا»؛ وذلك نتيجة لانتصاره على أهل «إهناسية المدينة». وقد فرض الأستاذ «زيته» عندما لم يجد شواهد معاصرة تدعم قوله أن الفتوح الطيبية قد امتدت شمالًا حتى «الأشمونين» التي كان يعبد فيها الإله «آمون» وهو أحد ثمانية آلهة كانت تعبد هناك، وتعتبر الآلهة المحلية لهذا الإقليم (مقاطعة الأرنب) (J. E. A., Vol. XVII, P. 151) ومهما يكن من زعم الأستاذ «زيته» في دخول الإله «آمون» في «طيبة» سواء أكان ذلك من جراء الانتصار في الحرب على الدلتا أم لا، فإنا قد وجدنا عبادة «آمون» كانت موجودة في أوائل الأسرة الحادية عشرة، غير أنها من المحقق أنها لم تكن عبادته هي الديانة الرسمية لملوك هذه الأسرة. وقد كان أول من جعلها ديانة الحكومة هو «أمنمحات الأول» فاتحة ملوك الأسرة الثانية عشرة، ويحتمل أن السبب في ذلك يرجع إلى أسباب أسرية. ومن ثم أخذت شهرته تنمو وتنتشر بخطًى واسعة، ولم يمضِ طويل زمن حتى وحده مع إله الشمس «رع» إله الدولة القديمة وأصبح يسمى «آمون رع». وقد ذكر «زيته» أمثلة لاسم الإله «آمون رع» ترجع إلى عهد «سنوسرت الأول» (Sethe, “Achung”, P. 236) ولقد كان من الطبعي أن يعمل الحاكم الجديد كل ما في وسعه لتقوية مركزه بازدياد نفوذ الإله معبوده هذا الذي يحميه.

وتدل الشواهد على أنه كان في الشعائر الدينية الأولى الخاصة بعبادة «آمون» ما يشير إلى سياحة بالسفينة المقدسة، ويحتمل أن أقدم سياحة سنوية له كانت إلى «ابت الجنوبية» (الأقصر)، وقد نشر «فوكار» قطعة من نقش وجد في «الدير البحري»، ويعتقد

أنه يظهر عليها مقدمة سفينة «آمون» في عهد الملك «نب حبت رع» Foucart “B. I. F.) .A. O”, Vol. XXIV, Pl. IX; Naville, “XI Dyn Temple”, Vol. I, Pl. XIII)

وربما كان ذلك مما سهَّل جدًّا لسميه العظيم «أمنمحات» أن يؤسس عيدًا جديدًا أطلق عليه السياحة إلى «وادي نب حبت رع»، وهو ذلك الفرعون الطيبي الذي وحَّد الأرضين، والواقع أن «وادي نب حبت رع» كان الاسم الشائع «للدير البحري» في عهد الأسرة الثانية عشرة، فقد كتب هكذا على لوحة «سنوسرت الثالث» التي وجدت في المعبد .(Naville, Ibid, P. 59, Pl. XXIV

وقد أصبح «عيد الوادي» الذي ذكر هنا لأول مرة فيما بعد من أيام العطلة الدينية الهامة جدًّا في «طيبة» كما نعلم من عهد الأسرة الثامنة عشرة حتى العهد الإغريقي الروماني[٢٠] وفي هذا اليوم كان يؤتى بتمثال هذا الإله من معبد الكرنك في سفينته المقدسة ويعبَر به في سفينة عظيمة إلى الشاطئ الآخر من النيل، ومن ثم يُحمل على أكتاف الكهنة من الجهة الغربية للنيل، ويسير في موكب حافل حتى الملك «نب حبت رع» وهناك يمضي الليل.

لقد بقي اسم «عيد الوادي» يطلق على هذا العيد حتى بعد أن جاءت الأسر الأخرى وبنت معابد جديدة في «طيبة» الغربية وكان القوم يحجون إليها، رغم أنها كانت مقامة في السهل لا في الوادي.

على أنه لم يخطر ببال الملك «نب حبت رع» أن القوم سيحجون إليه هذا الحج العظيم، وكذلك لم يفكر المهندسون الذين وضعوا تصميم معبده بهذه الكيفية أن هذا الحج سيحدث؛ لأن بناء المعبد لا يصلح لأي احتفالات يحمل فيها قارب الإله، ويسير بين طرقاته الضيقة الملتوية كما أشرنا إلى ذلك من قبل. وفي الحق أن سياحة القارب المقدس

[٢٠] وقد كان هذا القارب أو السفينة كما نعلم فيما بعد يرسو أولًا عند معبد وادي «الدير البحري» ثم في مقصورة في منتصف الطريق للمعبد، وأخيرًا في معبد حتشبسوت. وفي كل حالة من هذه الحالات كان يوجد في القارب تماثيل أوزيرية الشكل للملكة في أركان المقصورة.

(Annales du Musée Guimet) Vol. XXX (1902); Winlock M.M.A. (March 1932) Part II, PP. 14 ff.; Breasted, A. R. Vol. II, Par. 885, Vol. III, pp, 212, 215, 218, 515, 517, 522; Vol. IV, Par. 17; Foucart, B. I. F. A. O., Vol. XXIV: Kees, “Orientlische Literaturzeitung”, Vol. XXX, P. 242; Sethe, “Achtung”, Par. 8, Note Steindorff and Wolf, Thebaniche Graberwelt”, P. .27

لم يسمع بها قط في كل ما وصل إلينا من النقوش حتى الآن في عهد الأسرة الحادية عشرة.

أما في الأسرة الثانية عشرة فنعلم أنها كانت تقاوم سنويًّا ويتطلع إليها الأهلون في تلهف وشغف، وقد حدد لنا أحد الكهنة المسمى «نفرابد» تاريخ سياحة «آمون» إلى الوادي: «الكاهن المطهر «نفرابد» يقدم المديح إلى الإله «آمون» ويقبِّل الأرض أمام رب الآلهة في عيده في اليوم الأول من فصل «شمو» (الصيف) عندما يعبر في يوم السياحة إلى وادي الملك «نب حبت رع» كتبه كاهن «آمون» المطهر «نفرابد»»، فلا بد أن هذا العيد كان يقام في أيام «أمنمحات الأول» في اليوم الأول من أغسطس (Winlock, "Proceedings of the American Archaeological Society", Vol. LXXXIII, (1946), P. 447).

وهذا الفصل من السنة لم يكن له أهمية من الوجهة الزراعية؛ إذ فيه فصل الركود الزراعي؛ لأن الأراضي تكون مغمورة بمياه الفيضان حينئذ، وسنرى الدور الفريد الذي لعبه هذا الإله الذي كان مغمور الذكر في عهد الأسرة الحادية عشرة عندما امتدت الفتوح المصرية في كل بقاع العالم في عهد الأسرة الثامنة عشرة.